الأقانيمُ الثّلاثة

أو

آلهــةٌ مِنَ الحـلـوى

للشيخ علي يحـيى معمر

مع تحيات موقع الاستقامة

http://www.istiqama.net

بسم الله الرحمن الرحيم

[مَنْ كانَ يُريدُ العزّةَ فللّه العزة جميعاً إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيّب والعملُ الصالحُ يَرْفعه ، والذين يمكُرُون السيئاتِ لهم عذابٌ شديد ومكْرُ أُولئِكَ هو يَبُور)

صدق الله العظيم

(سورة فاطر ، الآية رقم 10)

فِكرَة الكِتَاب

لو أردت أيها القارئ الكريم أن تحصر مواضيع الاهتمام البشري في العصر الحديث لوجدته منصبا على ثلاثة أشياء هي ما عبرنا عنه في عنوان هذا الكتاب بالأقانيم الثلاثة . ولا أعتقد أنك حين تقرأ صحيفة سيارة يومية أو أسبوعية ، أو حين تستمع إلى إذاعة مسموعة أو مرئية ، أو تحضر ندوة اجتماعية أو ثقافية – لا تجد أن أكثر الاهتمام أو الحديث إنما ينصب على الطفل والمرأة والحاكم ، أو على أحدهم على الأقل . ولن تخلو الجرائد والمجلات والإذاعات والندوات ، بل والمؤتمرات ، من الخوض في شأن من شؤون الثلاثة أو أحد عناصرها .

ويبدو من هذا أن مشكلة البشرية الأولى في هذا العصر ، ولا سيما في الدول النامية ، إنما هي الطفل والمرأة والحاكم . وعلى هذا الاعتبار أطلقت عليها اسم الأقانيم الثلاثة ، لأنها أصبحت هي الأصول الثلاثة لنشاط الإنسان في عصرنا الحاضر .

وإلى جانب هذه الحقيقة توجد حقيقة أخرى هامة . وهي أن وراء الاهتمام بهذه الأقانيم في مجموعها أو بكل واحد منها على جانب ، تكمن رغبات محددة تبذل من أجلها الجهود ، وتولى الخدمات.

إن وراء الاهتمام بالطفل وتقديم الخدمات له تكمن رغبة ملحة هي كسب عنصر يحقق السير في منهج محدد تكمن الاستفادة منه على أوسع نطاق عندما يقوى هذا الطفل ويشتدّ ، ويحين أوان القطاف .

وإن وراء الاهتمام بالمرأة وتقديم الخدمات لها دون حدود تكمن رغبة ملحة ، هي الحصول على متعة غير مقيّدة والاستفادة من خصائص فطرية لا توجد إلا عند المرأة ، والاستعانة بها على مكاسب مادية لا تتحقق إلا على يديها .

وإن وراء الاهتمام بالحاكم وتقديم الخدمات له تكمن رغبة ملحة ، هـي الاسـتفادة الماديـة أو المعنوية في وجوده ، والاستفادة بمكانه عند العمل على طرحه وإبعاده .

فالعناية بالطفل والمرأة والحاكم ، في الواقع ، إنما تنبعث من دوافـع مـصلحية مظهريـة تمهـد لتسخيرهم فيما يعد للحصول على نتائج محـددة دون الاهتمام بمصيرهم بعد الحصول على تلـك النتائج .

أي أن المجتمع يبني من الطفل والمرأة والحاكم آلهة من الحلوى يقدم لها القرابين ويظهر لها الطاعة . فإذا وصل معها إلى مرحلة معينة فتحصل على النتائج المطلوبة أو شعر بالحاجة إلى إزالتها من طريقه سارع إلى تلـك الآلهة من الحلوى فالتهمها واستقبل بعنايته آلهة جديدة يشكلها من جديد .

وهذا ما دعاني إلى أن أضع العنوان الثاني للكتاب : (آلهة من الحلوى) مقتبـسا مـن سـلوك الأعراب في العصر الجاهلي .

إن هذا الكتاب ليس دراسة ولا فلسفة ، ولا بحثا علميا يرتكز على أسس وقوانين ، ولكنه عرض وتصوير لواقع بعضه موجود عندنا وعند غيرنا ، وبعضه موجود عندنا فقط ، وبعضه موجود عند غيرنا ، ومنه ما يتسرب إلينا في طمأنينة وسهولة ويسر .

وأنا حين أعرض الصور الآتية على القارئ الكريم وهي صور معروضة في المجتمع يراها ويحس بها لا أقصد أن أعطيه فيها رأيا ولا أن أعتبرها مشاكل أضع لها حلولا ، وإنما أريد أن أعرضها عليه في غـير زحمة الشارع وضوضائه حيث لا يملك الإنسان التفكير السليم والمراجعة الصحيحة . أريد أن أعرضـها عليه وهو مستريح النفس قارّا هادئا حتى يتابعها في شوق ويعيد تصوره لها في تأمل ثم يتخذ لنفسه معها ما شاء من الآراء والمواقف .

ولا شك أن كثيرا من القراء يخالفونني في الرأي أو في طريقة العرض أو في اسـتعمال الأسـلوب الصريح البالغ الصراحة ، لا سيما في موضوع المرأة .

وكلمتي إلى هؤلاء الإخوة أن ما قدمت هو مـا عرفت وقدرت عليه ، وإنني أحترم آراءهم مهما كانت مخالفة لي ، ولست أدعو أحداً إلى اعتناق آرائي أو الاقتناع بوجهة نظري ، وإنما يهمني أن يفكـر كل ذي فكر حر مستقل في مشاكل مجتمعنا عموما وهو مجتمع يعتـز بالإسلام ، ابتداء مـن الخطـوة الأولى في تربية الطفل ، ثم يتخذ لنفسه في ذلك موقفا ينسجم مع تعاليم الإسلام الحق .

والله من وراء القصد وهو يهدي إلى أقوم السبل .

المـــــؤلف

قوَالـــب للبَشَـــــر

إن تحكم الآلة في هذا العصر أصبحت تسيطر على الإنسان إلي درجة أنها تريد أن تُخضع الإنسان نفسه للصناعة كما خضعت بقية المواد .

وكما جعلت دور الصناعة الآليـــة قوالب محدودة للإنتاج الآلي حتى يخرج كل نوع منها متشابها تصلح كل قطعة منـــه أن تحل مكان القطعة الأخرى ، سرى هذا الأسلوب مـــن التـــصنيع إلى البـــشر أنفسهم ، لا سيما في الأقانيم الثلاثة التي أشرنا إليهـــا سابقا .

فالتربية الحديثة تصوغ مجموعة من القوالب يمرر منها الطفل في مراحله التربوية المختلفة على نمط معينّ .

وقوالب التربية محدودة صممها خبراء الصناعة التربوية في دول متقدمة كما يقولون .

أما الشعوب النامية وقد بهرتها صناعة الحضارة أو حضارة الصناعة ، فهي تلهث وراء القوالـــب تستورد منها لتصوغ فيها أفراد شعوبها .

وقد تتجه إلى جهة معينة لها قوالبها ، فتأتي بها إلى بلادها وتضع فيها جيلاً من أطفالها المـــساكين ، ولكن ما أن يمر عليهم فترة قصيرة في تلك القوالب ، وقبل أن يتم تشكيلهم يخطر لها أن تلك القوالب لا تؤدي الغرض المطلوب ، وتستورد قوالب أخرى من جهة أخرى وتخرج أطفال ذلك الجيل من قوالبـــهم السابقة وتعيد إدخالهم في القوالب الجديدة التي قد تختلف عن الأولى اختلافاً بيّناً . فتحاول تثبيتهم فيهـــا مع نوع من الضغط والإكراه قد يحطم فيه عدد من الأطفال والقوالب ، وتستمر العمليـــة في اســـتيراد القوالب وتغييرها بعض الأحيان مرتين في سنة ، وبعض الأحيان عندما يكاد يتم التشكيل .

ولا شك أن تغيّر القوالب القسري يترك تشويهات عديدة ولذلك فإن الطفل بعد أن تنفرج عنـــه تلك القوالب المتباينة يخرج هو الآخر غير متناسق ، لا مع نفسه ولا مع الناس ولا مع قالب مـــن تلـــك القوالب .

ونفس الأسلوب يجري مع الأقنوم الثاني الذي هو المرأة .

فقد وضعت للمرأة قوالب معيّنه في بلاد صناعية قيل عنها متقدمة ، والشعوب النامية تـــستورد تلك القوالب لتحرر منها المرأة في بلادها .

لقد صنعت الدول المتقدمة قوالب للمرأة عندها ، وهي قوالب محدودة في أشكالها ، ولكنها مـــع ذلك ينبغي للمرأة عندهم أن تمرّ منها . أما المرأة في الشرق فقد كانت تنشأ حرة كما تتهيأ لها الحيـــاة في بيئة صينة كريمة ، فحرصت الشعوب النامية على استيراد تلك القوالب لتصوغ منـــها المـــرأة الـــشرقية فتستطيع أداء دورها المحدد كما تؤدي قطع الغيار في الآلة دورها المحدد ما دامت خارجة من قالب واحد ، ولعل صناعة القوالب للمرأة تتقدم أكثر فتضع لها أرقاما ، وحينئذ يسهل الطلب والتعامل ، وما علـــى

من أراد أن يستبدل امرأة مستهلكة في متجر أو مؤسسة أو شركة إلا أن يقدم الطلب ويذكر الرقم إما إلى جهة التصنيع البشري أو على صفحات الجرائد السيارة .

أما الحاكم فرغم أن النظم السياسية تختلف ، فإن القوالب التي جعلت لتخريج الحكام لا سيما في الدول النامية قوالب قليلة ، وأنماطها متشابهة إلى حد بعيد ، فهي ولا شك تقوم مقام قطع الغيار بطريقة أدق . وبعض الدول تعاقب عليها في مدى قصير عدد الحكام ، واحد تلو الآخر ، وكانت المهمة التي يقوم بها كل واحد منهم هي نفس المهمة التي تقوم بها قطعة الغيار المتقنة عندما توضع في مكانها المناسب بعد أن تنزع الأولى لأنها استهلكت أو لأنها تحطمت ، وكل ما بين ذلك وهذا من فرق ، أن الحكام تختلف أسماؤهم ، أما قطع الغيار الآلية فلا تختلف ، وغالبا ما تكون أسماؤها واحدة ما دامت الدار التي تنتجها واحدة .

وإذا مضت البشرية في سيرها على هذا النمط ، فسوف يكون للطفل والمرأة والحاكم { موديلات } كموديلات السيارات والأزياء ، ولا تحتاج إلا إلى تحديد الطلبات فيستجاب لها بدقه ، وسوف يقال في توزيع مواليد سنة معينة في دولة معينة أننا نحتاج إلى عدد كذا من موديل كذا وعدد كذا من موديل كذا ، فتعد القوالب لذلك ويحشد فيها الأطفال حتى يتم تصنيعهم ثم يخرجون بعد ذلك حسب المواصفات ، ونفس العملية تجري مع المرأة والحاكم ، بل ان بعض الدول تحاول أن تدخل أفراد الشعب كله في تلك القوالب ، حتى أولئك الذين جفت عظامهم وتصلبت أعصابهم، ولم يكن يهمها أن يتحطم نصف العدد أثناء إجراء عملية التقليب الصناعية .

الطِّـــــفْـــــل

إن الإنسان في هذا العصر ، يوجه اهتمـــاما متزايداً إلى الطفل . فقد أصبحت دراسته ، والتفكير فيه ، والحديث عنه ، والاهتمام به في جميع الظروف والأحوال ، مظاهر تشغل حيزاً غير ضيق في الوقـــت ، وجانبا غير قليل من العناية ، وتستهلك قدراً ضخماً من الجهد ، وقسطاً وافراً من ميزانية الدولة ، بل لقد أصبح يخيل للإنسان الكبير ، أنه هو خالق الإنسان الصغير (الطفل) فمن حقه أن يشكله بالشكل الذي يريده ، ومن واجبه أن يتولى شؤون سعادته وشقائه ، وشؤون غذائه ونمائه ، وشؤون إيجاده وإعدامه ، بل حتى تحديد اللازم منه في الأرض .

ولعل وزارة أو أكثر في كل دولة من دول العالم إنما تخصص للطفل . فوزارة التربية مـــثلاً هـــي وزارة للأطفال ، وأهم أعمال وزارات الصحة والشؤون الاجتماعية إنما تقدم للأطفـــال أو مـــن أجـــل الأطفال ، ووزارات الشباب إنما هي وزارات يعود أغلب ما تقوم به إلى الطفل .

وكل وزارات الدولة بل الدولة نفسها بما فيها من أجهزة وإمكانيات تجدها مهتمة بالطفل في جميع الأحوال .

الاهتمام بأمراض الوارثة ، قضية الحمل ، معاملة الحامل ، الغذاء والدواء لها وله وهو في بطنها لم يخرج بعد ، الاستعداد لاستقبال مقدمة ، تنظيم مروره إلى الحياة بتحديد الحمل أو منعـــه ، إذا اقتـــضى الأمر ، تحديد العدد بالنسبة لأفراد الأسرة ، فتح الباب أمام عدد محدد ومنع مجيء أطفال جدد إذا خيف أن يقلقوا راحة الموجودين بالفعل ، على اعتبار أن الأرض هي ملك للأحياء الموجودين عليها بالفعـــل ، وأن الذين لم يدخلوها بعد إنما هم دخلاء من حقنا أن لا نستقبلهم ولا نقوم بـــضيافتهم . ومـــا دامـــت الأرض لا تستوعب إلا عددا معينا في نظرنا فإنه من حقنا أن لا نسمح بالزيادة على ذلك العدد ، ومـــا دام دخل البيت في نظرنا لا يكفي إلا لأربعة أفراد فإنه من حقنا أن لا نسمح بالزيادة عن ذلك العدد في ذلك البيت وهكذا .

ثم الاهتـــمام بدور الطفولة والحضانة والمدارس والملاعب ومعسكرات الـــشباب ، كـــل تلـــك الأشياء داخلة في هذا الاهتمام بالطفل .

والذي يلاحظ من بعيد ما يقال في هذا المجال وما ينبغي أن يعمل للطفل يجد أن الأسرة إنمـــا هي عبارة عن ثلاثة أفراد ، أولها طفل صغير يحاط بجميع مظاهر القداسة والعبادة ، وأم ساهرة على خدمة هذا الطفل أو الإله الصغير تقوم عليه بالخدمة الممتازة ، وتغدق عليه محبتها وتضفي عليـــه مـــن أحاسيـــسها ومشاعرها وعاطفتها ، وتقدم إليه ما يحتاجه في هذه السن المبكرة، ، أما الأب في الحقيقة فهو خـــادم أو عبد يؤمر فيطيع، وعليه أن يُحضِر للطفل ما يجب له حسب ذوق أمـــه ورأي الجماعة ، وأن يكفل له ولها الغذاء المناسب واللباس المناسب والرعاية المناسبة، إن الأب في هذا الحال ليس له حق وإنما عليه الواجب

فقط ، عليه أن يتكفل بجميع ما يحتاج إليه الاثنان وأن يحضره ويعده لهما ، عليه أن يعمل ليوفر للإله الصغير القابع في مهده ولسادنة المعبد جميع ما تقتضيه طبيعة حياتهما وطبيعة حياته .

وقد يبدو من جهة أخرى أن تفكير الإنسان الكبير في تسيير الإنسان الصغير (الطفل) قد يختلف بعض الاختلاف في العصور القديمة والعصر الحديث ، بل ربما أن التخطيط فيهما يتجه اتجاهين متباعدين .

فبينما كان الإنسان في القديم إنما ينظر إلى الطفل نظرة فردية باعتبار الطفل امتداداً لحياة أحد الأبوين ، يتمنى ذلك الأب أن يرث منه طفله جميع مواهبه وخصائصه وطباعه ، وفي كثير من الأحيان حتى وسائل معاشه ، وأساليب احترافه ، وإن كان يتمنى أن يكون ذلك منه بطريقة أفضل وأحسن وأعود بالكسب ، كانت الدولة إنما تقف ناظرة من بعيد في شبه سلبية تنتظر حتى يتجه إليها ذلك الفرد لينضم إلى قواها .

بينما كان هذا الأسلوب هو الظاهر في القديم ، فإن أسلوب العصر الحاضر تغير تغيراً ملحوظاً ، فأصبحت الدولة تهتم بالطفل أكثر حتى من اهتمام الأسرة أو أفراد الأبوين ، ولذلك فهي تقدم له الرعاية في سنواته الأولى ، ثم لا تلبث أن تستلبه من أسرته وتستأثر دونها في تشكيله في الشكل الذي ترغبه وتريده . ذلك أن الإنسان في هذا العصر قد تخلى عن التفكير الفردي وأصبح يعمل بروح المجموعة ، فهو يريد أن تسير المجموعة الكبيرة – حسب خطة مرسومة – المجموعات الصغيرة ، وأن المجموعات الصغيرة يجب عليها أن ترث كل الخصائص والمواهب والأفكار والسلوك من المجموعة الكبيرة ، وأن تسير حسب مخططاتها .

الطِفْل في الغَيبْ

لا شك أن الاهتمام بالطفل وهو لا يزال في الغيب أمر يبدو غريبا ولكنه واقع ، وقد أرشد إليه الإسلام ، كما أنه يأخذ حيزاً كبيراً من تفكير الإنسان واهتمامه وتقديره واستعداده بأزمنة طويلة قبل توقّع وصوله .

وإذا كان الإسلام قد أرشد إلى ملاحظة أسس معينة توقعاً لمجيء الطفل الذي لا يزال في ضمير الغيب ، فإن لعاطفة الإنسان وتفكيره وآماله وأحلامه وحتى آلامه ، دخلاً عظيما في الموضوع .

وبالنظر إلى اهتمام الإسلام بالطفل وهو لا يزال في ضمير الغيب فإننا نستطيع أن نذكر أساسين هامين يوصي الإسلام بمراعاتهما هما :

1 – البيئة التي يجيء منها الطفل .

2 – تأثير الوراثة على الطفل .

وفي الأساس الأول يمكن للباحث أن ينطلق من قول رسول الله ρ : (إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء) أو كما قال .

وقد شاع على السنة الفقهاء قولهم : ومن حق الولد على أبيه أن يختار له أخواله . ولا شك أن اختيار الأخوال يكون قبل مجيء الأم ، يعني أن يهتم بالولد وسمعته وهو لا يزال في ضمير الغيب . والحديث الشريف الذي ذكرناه أصرح وأوضح في الموضوع ، فإن المنبت السوء الذي تنشأ فيه الأم أو ينشأ فيه الأب يكون له تأثير عظيم على تكوين الطفل ، ولذلك فمن واجب الرجل ومن واجب المرأة أيضاً أن يبتعد عن خضراء الدمن ، أما في الأساس الثاني وهو الاهتمام بقضية الوراثة ، فقد جاء فيه عن رسول الله ρ قوله { تخيّروا لنطفكم فإن العرق دسّاس } ، والحديث الشريف حجة صريحة واضحة في الموضوع وحدٌ فاصل عند الاحتكام .

ومعنى هذا أن الشريعة الإسلامية حرصت ولا شك على مراعاة الطفل وهو في عالم الغيب ، قبل أن تتقرر حتى علاقة الأبوين ، فأرشد إلى أنه يجب على الأب قبل الارتباط بأم طفله، وعلى الأم قبل الارتباط بأب طفلها أن لا يجعلا طفلهما عرضة لقالة السوء بسبب منبت أحدهما ونسبته إلى أخواله أو أعمامه وأن يجنباه احتمال التعرض للعاهات بسبب الوراثة .

ويجري سلوك الناس في هذا الأساس قريبا من التوجيه الإسلامي ، فلا شك أن أغلبية الناس – ذكوراً وإناثاً – وهم يفكرون في الزواج تتراقص بين أعينهم صور لما ينبغي أن يكون عليه أولادهم ، ولا يخلو ذهن فتى أو فتاة وهما في صدد اختيار رفقة العمر عن رسم صور محبوبة لصور ولد المستقبل ، وربما دخل فيها حتى الصور الجسمية . أما الفلسفة الإنسانية في الموضوع فهي قد تكون أشد اهتماما في هذا

العصر ، ولما كان مبدأ الوراثة قد تقرر واعترف العلم الحديث بثبوته فقد جرى التفكير بالإنسان شوطا أبعد حتى حاول حرمان المعوقين والمشوهين والضعاف من الإنجاب ، لكي تكون جميع الأجيال المتولدة من الإنسان على المستوى المطلوب في القوة والجمال والذكاء ، وربما اتخذت بعض الدول خطوات عملية في تطبيق أو تنفيذ هذه الفلسفة .

وخلاصة هذا الفصل أن الطفل وهو لا يزال في ضمير الغيب يجد الاهتمام والرعاية والتفكير قسطاً كبيراً ، وتتعاون الشريعة الإسلامية والفلسفة البشرية في العناية به بالقدر الذي يمهد له بيئة سليمة هادئة ومنبتاً حسناً مستقراً وضرورات مكفية مقضيه بعيداً عن التأثير السيئ الوراثي في خَلقه وخُلقه ولو أن الفلسفة البشرية في هذا الجانب تفرط في المبالغة حتى تتجاوز الحدود وتخرج عن نطاق الطبيعة

إن المدة الزمنية التي يقضيها الطفل في الطريق منذ اتحاد جزئيه الأولـــين إلى أن تصافح الشعاعة الأولى من النور عينيه المفتحتين وتلمس النسمة الأولى من هواء الأرض أنفه وشفتيه هي تسعة شهور قـــد تنقص قليلا وقد تزيد قليلا .

لقد كان الاهتمام بالطفل في المرحلة السابقة ، اهتماما بالمجهول ، واحتفاء بمتوقـــع ، وتنظيمـــاً للسير في مرحلة قد تتم وقد لا تكون أبداً ، أما في هذه المرحلة فإن الاهتمام واقع على شـــيء موجـــود بالفعل وإن كان غير منظور هو متوقع الحضور في خلال فترة وجيزة لا تتجاوز بضعة شهور.

وتتعاون الأديان وفلسفة الإنسان في هذا الموضوع أيضاً فتستعد لاستقبال هذا الوافـــد ، وتوصـــي بتقديم جميع الضمانات لوصوله سالماً ، وتحرم تحريماً مطلقاً أن يلحق به أي أذى وهو في الطريق .

ولما كان الطفل في هذه المرحلة – مرحلة الطريق ، أو مدة الحمل – لا يزال يحجزه حاجب سميـــك عن الاتصال المباشر به ، فقد اتخذت الوسائل لخدمته والعناية به عن طريق جـــانبي هـــو طريـــق الأم ، فأحيطت الأم بعناية فائقة ، اهتمت الأديان بالطفل في شخص أمه فأعطتها حقوقاً ليست لها في الأحـــوال العادية وأعفتها من واجبات لا يمكن أن تعفى منها لو لم يكن ذلك الطفل قابعاً في بطنها . أمـــا فلـــسفة الإنسان ، فقد كان اهتمامها منصباً في تسخير كل ما وصل إليه العلم لخدمة ذلك الطفل الذي لا تـــزال تحجبه جدران من لحم ودم فجهدت أن توفر له وسائل الراحة وأن تهيئ له الغذاء المناســـب والإشـــراف الطبي الكامل عن طريق أمه أيضاً طيلة فترة الانتظار ، وتبالغ أحياناً في ذلك حتى تتحكم في حركـــة الأم وعملها وغذائها ولباسها .

أما الأبوان فهما في هذه الفترة أشبه بطفلين لديهما لعبة ثمينة ملفوفة في طرد مغلق بإحكـــام ، فهما بقدر شغفهما باللعبة وتوقهما إلى رؤيتها يحذران انكسارها ويخشيان من خسارتها.

وهكذا نجد جميع العوامل تحيط الطفل في هـــذه الفترة – فترة الطريق – بالمحبة والخدمة والعناية ، تنفق في ذلك الأديان والفلسفة البشرية ورغبة الدولة والمجتمع والأسرة ، فهي فترة عطاء كامل بالنسبة لهذا المخلوق المنتظر الذي لا يعلم أحد غير الله ما هو الأثر الذي سوف يحدثه بعد قدومه .

الطِفـــْل في الأســـــْـــــرة

عندما يضع الطفل قدمه على عتبة الحياة المنظورة ، ويخرج من الطرد الذي أرسلته فيه العناية الإلهية إلى واقع الحياة البشرية ، ويستقبل النور والهواء فتراه العيون وتلمسه الأيدي – تبدأ سلسلة أخرى من الاهتمامات ، وأول الاهتمامات التي توجهها الأديان إليه في هذه المرحلة بالإضافة إلى العناية بصحته عامة ورعاية نظافته وغذائه – إنما هي مراعاة موقعه من المجتمع في حياته المقبلة ، ولذلك فهي توصي أن يختار له أحسن الأسماء وتضفي إليه أكرم النعوت لئلا يتقلقل موضعه في المجتمع بسبب لفظ تمجه الأذواق وتنبو عنه الأسماع ، ويتخذه بعضهم أداة سخرية ووسيلة إغاظة وإثارة . وقد كانت الأديان في المرحلة السابقة تعفي الأم من بعض الواجبات وتعطيها بعض الحقوق التي ليست لها ، أما في هذه المرحلة وقد خرج الطفل من بطنها ليستقر بين يديها وعلى حجرها فقد أصبحت تفرض عليها نوعاً من الشدة وبعضاً من الواجبات التي لم تكن مطالبة بها ، ولما كان كل ما يصل إلى الطفل في حياته الأولى من الطفولة وإنما يصله عن طريق الأم ، ولما كان الإسلام حريصاً على الطهارة والنظافة ، فإنه ألزم الأم بمراعاة هذا الجانب في حياة الطفل المبكرة عندما تكون يد الأم هي الأداة الطبيعية لتغذية الطفل ونظافته ، وأوصاها أن تحرص على أن يكون كل ما يصل إلى الطفل طاهراً ونظيفاً ، طهارة صحيحة حتى يسلم من الأمراض والآلام والعاهات ، وطهارة شرعية حتى لا تستمرئ أمعاؤه الدقيقة شيئاً من الغذاء الحرام والشراب الحرام وتعتاد عليه .

وقد شدّد فقهاء بعض المذاهب على الأم التي تتساهل في أمر الطهارة فيما تقدمه للطفل ، ففرضوا عليها (كفّارة) بل لقد بلغ الأمر عند بعضهم أن الزموا كل أم (كفارة مخففة) عن كل مولود لها عاش فترة ما ، احتياطاً عما قد تكون قدّمته له عن غفلة أو سهو ثم نسيته .

أما الفلسفة الإنسانية ممثلة في الدولة ، فهي تضع كل ما وصل إليه العلم في خدمة الطفل لهذه الفترة ، فتحتفل لاستقباله بدور الولادة وتسخير علوم الطب والصحة لراحته وتجنيد الأطباء والممرضين والقوابل للقائه بما يكفل له عدم الإحساس بمرارة الانتقال من محضنه في ظلمات الرحم على مهاده في دنيا الحركة والتموج .

وتواصل الدولة رعايتها واهتمامها بالطفل في هذه المرحلة بالوصايا التي تفرضها على الأم من اختيار الغذاء والكساء والنظافة واستشارة علم الصحة في جميع الأحوال وتقديمه لأنواع التطعيم أو وسائل الوقاية التي توصلت إليها البشرية وتقدمها الدولة في حرص واهتمام .

وبعد فترة ليست طويلة من هذا الاهتمام والعناية بالطفل من جميع الأطراف يبدأ الخلاف يتضح بالتدريج بين مقاصد الدين والدولة والأسرة من تكوّن هذا الطفل ، بل قد تختلف مقاصد الأب عن مقاصد الأم وبالعكس .

وتتوزع الرغبات المختلفة البذور الحقيقية التي تبذر في نفس الطفل منذ هذا الحين ، ولما كان الاتصال الوثيق بالطفل لا يزال في يد الأم أولاً ثم الأب ثانياً ، فإن السلوك الذي ينسكب في نفس الطفل

غالباً ما يأتي عن الأم أو عنها وعن الأب ، ويبدأ تأثيرهما يبتعد به أو يقترب من مقاصد الدين أو مقاصد الدولة عندما تكون الدولة بعيدة عن الدين .

والواقع أن الاهتمام المنصّب عليه في هذه الفترة إنما كان لخدمته دون تكليفه ، سواء في ذلك اهتمام الدين واهتمام الدولة واهتمام الأسرة ذات التأثير الفعّال . ولكن عملية الخدمة هذه هي في الحقيقة عملية استجلاب أو عملية استرضاء ثم رضا .

ومن الواضح بمكان أن الدين وهو يقدم توصياته لخدمة هذا المخلوق الجديد فإنما يريد أن ينشئ فرداً يحمل جميع المقومات التي أرادها الخالق سبحانه وتعالى في الإنسان حينما جعله خليفة له في الأرض ، وأناط به تحمّل التبعات في عمارتها ، ووضع على عاتقه الأمانة الثقيلة .

أما الدولة مستعينة بالعلم الذي نشأ عن تجارب الإنسان الطويلة فهي تريد أن تستفيد عضواً جديداً يتمكن من القيام بأعباء تفرض عليه مستقبلاً ، فهي تقدم النصائح والتوصيات التي تعتقد أنها كفيلة بتكوين جسم سليم وفكر قويم خاضع لرغبة المجتمع .

أما الأم وهي أقوى مؤثر من أفراد الأسرة ، فهي تريد أن تصوغ عجينتها هذه على أحب صورة في أحلامها ، لأنها تعتبرها امتداداً لها ، وإضافة لحياتها ، ولا يبعد اتجاه الأب عن هذا الاتجاه .

ووسيلة الدين في هذا المقام لا تزيد عن تعريف الأبوين بالسلوك الذي يجب عليهما إزاء الطفل ثم توجيه الطفل نفسه في المسلك الذي ينبغي له .

أما الدولة فبالإضافة إلى التوصيات الكثيرة التي توجهها إلى الأبوين وبالأخص الأم فإنها أشد خشية من أن لا يتحقق لها ما تريد ، ولذلك فهي تحتال لبلوغ مقاصدها بأخذ الطفل ووضعه تحت توجيهها وإشرافها بأسماء جذابة مغرية (دور الحضانة) (رياض الأطفال) (دار التربية والتعليم) وتجعل القيمين على تلك الدور ناساً قد أعدتهم للقيام بتلك المهمات إعداداً خاصاً .

أما الأبوان فلكي يصوغا طفلهما على النمط الذي يريدانه فإن سلوكهما غالباً لا يخرج عن حالتين : حالة الرعاية والنصيحة والتوجيه في لين حيناً وفي شدة حيناً آخر ، والحالة الأخرى التوجيه الإجباري ولو اقتضى ذلك استعمال العنف بأقوى مظاهره .

وهكذا تبدأ الرغبات تتجاذبه ، وبعد أن كانت جميع الجهود مبذولة له والخدمات تقّدم إليه أصبح مطالباً بالواجبات ، وكل يوم تزداد تلك الواجبات وتثقل ، فنحن نريد منه الحب ونحن نريد منه الإعجاب ، ونحن نريد منه السلوك الذي نمليه عليه ، وبعبارة أوضح نريد منه أن يتجه اتجاهاً إجبارياً في مسلك خاص .

إن ذلك التمثال الذي حلمنا به في الغيب وانتظرناه في الطريق واستقبلناه بما يشبه التقديس والعبادة ، وأحطناه بهالة من العناية والإكرام أصبح اليوم تمثالاً من الحلوى نتوق إلى أكله والاستعاضة عنه بغيره .

الطفْل فِي المَدرَسَة

إن الطفل في المدرسة يشبه نبتة صغيرة على أرض عارية تتعاقب عليها رياح مختلفة الاتجاه وتمر بها زوابـــع عنيفة من كل مكان .

الأب يريد منه أن ينمو بسرعة وأن يجيد مهارة ما لتكون وسيلة اكتساب تقدم للبيت مدداً مادياً يساعد على النفقات ، وهو غالباً يرغب أن يسلك طفلة أقرب الطرق لأضخم المكاسب .

والدين يريد منه أن يعرف حقائق الإيمان والعمل الصالح ، ليقوم بقسطه من خلافته لله على الأرض على هدى وبصيرة ، وليعيش في الدنيا عبداً حراً لله ، لا يخضع لغيره ، ولا يذل لسواه .

أما الدولة فهي تريد منه أن يسير في المنهج الذي تراه حتى يساعد على مزيد من الاكتشاف والاختراع في المجال الذي تمهده له وأن يسوق معها – بقوة وذكاء – قافلة البشرية إلى مصير مرسوم . والواقع أن الدولة وإن قدمت إلى الطفل في السابق كثيراً من المساعدات ، غير أنه كان لا يحس بها الإحساس الكافي ، فهي في نظره ليست ذات قيمة ، أما الآن وقد مرّ برياض الأطفال ودخل المدرسة ، فإن المساعدات تصله مباشرة وهو يعيها ويحس بها إحساساً كاملاً ، ولذلك فإن تأثيرها عليه يكون من العنف والقوة بالمقدار الذي يزيح جميع المؤثرات السابقة ، ويوجهه التوجيه الإجباري المطلوب ، وعندما تكون الدولة مخالفة في مسلكها لمنهج الدين أو لرغبات المجتمع – وهذا ما يحدث غالباً – فإن الطريق يتفّرع امام الطفل ، ويسلك غالباً مع المنهج الذي امتص مبادئه من أفراد أسراته وهو صغير ، أما عندما تكون الدولة سائرة في منهج الدين فإن الطفل غالباً ما ينتهج السلوك المقصود منه .

ولا شك أن الدولة بالنسبة للطفل في هذه المرحلة متسترة بمصالح الشعب والوطن ، تستغل كل ما حذقه خبراء التوجيه التربوي للاستفادة من هذا الطفل في الركب السائر لتنفيذ مخططاتها .

وينقسم خبراء التوجيه التربوي على قسمين :

النوع الأول : وهو في الغالب ما تسير عليه مخططات الشعوب النامية التي تنقصها الخبرات والمواد ، ومسلكها يشبه أن يكون مسلك الطبيب مع المرضى في الحالات الخطيرة ، الإشراف المتواصل ، أخذ مقاييس الحرارة عدة مرات في اليوم ، وضع ريجيم للتغذية ، التقليل من بعض المواد والإكثار من مواد أخرى ، المنع الكامل من بعضها ، مراعاة حركة المرضى ، والسماح لبعضهم بالتحرك الكامل ولبعضهم بالتحرك المحدود في نطاق محدود ، وعدم السماح لبعضهم بالحركة مطلقاً .

إن أطفال المدارس في الدول النامية في الواقع ليسوا بعداء عن هذا الوضع ، تحدد لهم مواضيع الدراسة حسب أمزجة الدولة وسياستها ، تكثر من بعضها وتقلل من بعضها الأخرى ، وتمنع بعضها منعاً مطلقاً ، وتشرف على تحركاتهم إشرافاً كاملاً ، تسمح لبعضهم بالحركة المطلقة ولبعضهم بالحركة المحدودة في الأماكن المحدودة ، بينما تمنع بعضهم من التحرك منعاً مطلقاً .

ويسير الطفل في مراحله الدراسية على هذا التخطيط حتى يتمها وقد صّب في القالب المطلوب القالب الذي تريده الدولة ، فإذا لم يتسع له القالب أو حاول أن يخرج عنه مثّلت معه دور العربي الجاهلي مع إله من الحلوى .

وفي أثناء هذه العملية المحددة الضيقة التي يسير عليها الطفل بإشارات التوجيه الإجباري تنصب سيول دافقة من آراء التربية وعلماء النفس ونصائحهم في هذا الميدان ، يقرؤها الكبار والمسئولون طبعاً ثم يضعونها في أماكنها من مراكز التوثيق أو مكتبات الدولة أو مكتباتهم الخاصة ، ذلك لأن ما يجيء في تلك الكتب عامة يشبه ما تصفه كتب علم التغذية من المواد الموجود في النباتات المنتشرة في ميادين الحياة .

أما المدرسة فهي شبيهة جداً بالمستشفى ولا تقدم للطفل إلا بمقدار ما يقدمه المستشفى للمريض ، بنصيحة وكيل الوزارة أو عميد التوجيه أو مدير المدرسة أو المدرس أو غيرهم ممن تناط به هذه العملية ، بل إن القوانين تحاول أن تلحق الطفل حتى خارج المدرسة فتمنعه من الزيادة على ما تقدمه له بدعوى الشفقة عليه وخوفاً على أعصابه من الإرهاق ، بل لعله من المضحك أن يجنح عدد من أولئك الخبراء فيقررون على سنة دراسية عدداً من الحصص في الأسبوع يؤكدون أن علم النفس التربوي الحديث لا يسمح بالزيادة عليها ولا بالتنقيص منها ، ويجتمعون هم أنفسهم أو أكثرهم بعد فترة قصيرة فيقررون غير ما قرروه أول مرة زاعمين أيضاً أن ذلك ما يؤكده علم النفس التربوي الحديث وأن الزيادة على ذلك والنقص منه مخالفة لحقائق العلم .

أما النوع الثاني : وهو الذي تسلكه الدول التي تملك الخبرة والثروة فهو يختلف عن هذا المسلك اختلافاً واضحاً ، إنه مسلك ينبني على دراسة مسبقة لميول الطفل ثم تقديم ما يشتهيه أولاً بأول . هم لا يمنعون ما لا يريدون بصورة النهي المباشر ، وإنما يقدمون إليه ما يريدون في صورة المرغوب المشتهى ، وبدلاً من أن يضعوا أمامه إشارة منع الحركة في اتجاه أو ميدان يبتعدون به عن الاتجاه أو الميدان المرفوض ، ويضعونه في الميدان أو الاتجاه المطلوب ويبذلون له حرية الركض . وقد تلتقي أهداف الاتجاهين وإن كانت الصورة الأخيرة تتم دون تذمّر أو شكوى لأن أصحابها يعتقدون أنهم وصلوا بمحض اختيارهم ورغباتهم ، بينما تتم الصورة الأولى بكثير من القسر والإكراه والعنف .

إن الأطفال في الدول النامية كأنما يوقفون في طوابير ثم تصدر إليهم الأوامر – واحداً واحداً – كن أنت كذا ، وكن أنت كذا ، أما الأطفال في الدول المتقدمة فكأنما يوقفون هم أيضاً في طوابير ، وتوضع مصائرهم في أشباه لعب جميلة أمامهم ثم يتاح لهم اختيار ما يريدون منها ، وإن كانت هي الأخرى محددة حسب رغبة الدولة ، فيثب كل واحد منهم إلى اختيار اللعبة وتتيح له تلك اللعبة أن يستمر معها حتى يصبح محترفاً فيها تشكل لونه حياته .

والفرق بين التوجهين الأول والثاني أن التوجيه الأول يترك جميع الأشياء أمام حسّ الطفل ونظره ، مرفقة ببطاقات الأوامر والنواهي : أفعل ولا تفعل ، خذ لا تأخذ . أما في التوجيه الثاني فتستبعد من المبدأ الأشياء غير المرغوب فيها وتوضع الأشياء المرغوب فيها أمام الطفل منسّقة جميلة وإلى جانبها بطاقة واحدة تقول له : اختر ما شئت منها .

وهكذا تجد في الدول النامية كلمة : افعل ولا تفعل ، تتحرك معك كظلك ، بينمـــا لا تجـــد في الدول المستقرة إلا عبارة : اختر ما شئت .

طفـــــــْل الدّولـــــــــــَـــــة

لست أدري لماذا تثور في ذهني – كلما فكرت في موضوع الطفل في الدول – تلك الصورة التي قرأت عنها في بعض كتب التاريخ أو كتب الأدب من أن بعض الأعراب في الجاهلية يتخذون أصناماً من الحلوى يعبدونها زماناً فإذا جاعوا أكلوها ثم يتخذون غيرها ويكون مصيرها نفس المصير .

هذه الصورة تلح على ذهني كثيراً وأنا أفكر في الطفل ، بل في الفرد البشري عند الدول الناميـــة كما تسميها الأوضاع السياسة اليوم ، ولعل وجه الشبه في هذا أننا نبذل من الاهتمام والرعاية وتقـــديم الخدمة – على كل من نطاق الأسرة والدولة – للطفل قبل أن يحصل على مادته ، ثم عنـــدما تتـــشكل عندنا مادّته ويتم بناؤه تعود عليه فتلتهمه تماما كما يفكر ذلك الأعرابي الجاهلي فيجمع مـــادة الحلـــوى ويقوم بتشكيلها وتقديم الخدمات لها فإذا تم له ذلك واستوت أمـــام عينيه ثم أحسّ بالجوع وثب عليهـــا فالتهمها ، ثم بدأ يفكر في إله جديد .

نحن ننتظر الطفل وهو في الغيب ، ونرعاه وهو في بطن أمه ونحتفل لاستقباله عند مقدمه ونقدم له الخدمة والرعاية لفترة من الزمن ،فإذا دخل المدرسة شكلنا له هيكله وأعضاءه حسب رغبتنـــا ، كمـــا يشكل الجاهلي هيكل إلهه من الحلوى ،وبعد أن يتم تشكيل ذلك الطفل على النمط الذي خططناه نثـــب عليه في يوم من الأيام لتزيله من الوجود ،الوجود الحسي والوجود المعنوي .

ربما ظن القارئ أنني أرمز بهذا إلى معنى بعيد لم يفهمه ,وأريد أن يتأكد القارئ أنني لم أقـــصد إلى شيء غير الظاهر الذي تؤديه عباراتي بما فيها من قصور.

إن الذي أريد أن أقوله ان الدول في هذا العصر أصبحت تحاول جاهدة بما أوتيـــت مـــن خـــبرة ومعرفة أن تصوغ أطفال شعوبها كلهم في قوالب متشابهة تسير بحركة واحدة رتيبة كأنما هـــي في طـــابور عسكري تنسق إيقاع خطواتها كلمتا ..يمين ...شمال...

إن الدولة المعاصرة قد سيطرت ـــ بمختلف الوسائل ـــ على شخصية الفـــرد ، فهـــي تريـــد أن ينساق معها في الاتجاه الذي ترسمه غير عابئة بشخصيته .

ورغم التغني المستمر بالحرية الفردية فإنه لا وجود لها لا في الـــدول المتقدمـــة ولا في الـــدول الناميـــة.

والواقع الذي تعيش عليه البشرية اليوم أنً الفرد إنما هو عبارة – مهما كان مستواه الفكـــري – عن طفل نقدم له الخدمات ولكنه يسير على المنهج الدراسي ولا يخرج عنه ،وإذا خطر له أن يخرج عـــن المنهج الدراسي المرسوم أعيدت معه قصة الإله من الحلوى .

وخلاصة هذه الفصول أن الدول تبذل من الرعاية والعناية شيئا كثيرا للأطفال في فترتي الحمـــل والرضاع ثم تستلمهم من أسرهم في نحو الرابعة والخامسة من أعمارهم حيث تكون قد أعدت لهم قوالب للصياغة تبدأ من رياض الأطفال وقد تنتهي بآخر المراحل الجامعية وقد لا تنتهي صـــياغة بعـــضهم فـــلا يتشكلون بالشكل المطلوب ، وحينئذ تعاد قصة الإله من الحلوى معهم.

والحقيقة أن الدول إنما تعامل في هذا العصر جميع أفراد شعوبها معاملتها للطفل ، فهي شبيهة بتلك الأم التي لا تستطيع أن تتصور أن ولدها كبر وأصبح رجلا يستغني عن رعايتها فهو إما أن يأتمر بأمرهـــا ويخضع لرغبتها ويسير حسب توجيهها وإلا فستبدأ المشاكل وتثور الزوابع .

المــــــــــــــرْأة

لعل المرأة لم تشغل من فكر الإنسان ، وتأخذ من وقته وتستحوذ على اهـــــتمامه – في أي فترة من فترات التاريخ – كما شغلت واستحوذت وأخذت ذلك منه اليوم ، رغم أن المرأة في حياة الإنسانية الكاملة كانت هي مثار الاهتمام وموضوع المناقشة والحديث .

والسبب فيما يبدو أنها في العصور السابقة كانت هي موضوع الحديث فقط ، فالديانات تشغل بها وتخصها بجانب من الرعاية ، والفلسفة تهتم بها اهتماماً خاصاً وتوليها جانباً آخر من العنايـــة ، وكانـــت

العاطفة البشرية تتأثر بها وتؤثر فيها وتخصها بالجانب الأكبر من الاهتمام . وكانت المرأة تنظــر إلى كــل ذلك متلذذة مستمتعة متدللة طالبة المزيد ، متصنعة الحنق والغيظ ،مظهرة في ظاهرها الإحساس بالحرمان ، وهي في داخل نفسها مغتبطة فرحة .

وجاء العصر الحديث ، ورغبت المرأة في المزيد من العناية والاهتمام ، ولم تعد تكتفي بالإيحاء بمــا تريد ، وإنما خطر لها أن تتولى هي نفسها الإعلان والمطالبة وأن تشترك أو تقود هذه الحركة الجديــدة ، وبعد أن كانت المرأة موضوع الحديث والاهتمام أصبحت موضوع الحديث والاهتمام ومصدرهما أيــضاً .وهكذا تضاعفت الحجوم والمساحات التي كانت تشغلها المرأة من واقع الحياة .

وإذا استمرت المرأة في مسيرتها هذه ، فلا يبعد أن تخسر كونها موضــوع الاهتمــام والرعايــة وتكسب كونها مصدر الاهتمام والعناية ، وحينئذ تنتقل من شيء عزيز يصوره الخيال وتزينــه الأحــلام ويعزّه تزاحم الطلب ، إلى سلعة معروضة على الرصيف تعلن عن نفسها في ذلة وانكــسار ، تقتحمهــا العيون ، وتمتهنها الأيدي وتسحقها ألوان السخرية المتتابعة .

المعركة المفتَعـــــــــَـــلة

لاشك أن الله عندما خلق الإنسان ، أنعم عليه بالحرية ، في جملة النعم الكثيرة التي أغدقها عليه ، ولكن تلك الحرية التي أنعم الله بها على الإنسان – ذكراً كان أو أنثى – إنما كان مراعى فيها – بطبيعة الحال – حدوداً معينة لا يصح تجاوزها ، فليس من حق الإنسان أن يدعي باسم الحرية مطلقية التصرف ، ليس من حريته أن ينكر النعم التــي أسبغت عليه ، ويتوجه بالشكر إلى من لم يقدمها له ، ولــيس مــن حريته أن يقدم طاعته لمن لا يستحق منه الطاعة ، وليس من حريته أن ينسلخ من طاعة من تجب له منــه

الطاعة ، وليس من حريته أن يعبث فيما يقتضيه نظـــام الحياة ، وناموس الكون ، وســـبب العمـــران . وليس من حريته أن يطيع الشيطان ، أو يعبد الأوثان ، أو يزهـــق الأرواح حتى روح نفسه .

فالحرية إذاً محدودة بحدود كثيرة .

وقد اقتضت طبيعة الحياة أن تكون حرية الرجل محدودة بحدود ، وأن تكون حرية المـــرأة أيـــضاً محدودة بحدود ، تتفـــق هذه الحدود أحياناً وتفترق أحياناً أخرى لتكون لكل منهما حدوده الخاصة .

وأراد الرجل أن يجتاز حدود حريته فيستمتع دون قيود أو حدود أو ضمانات أو بذل للأموال ، فعارضته حرية الآخرين . لقد أباحت الشرائع والأعراف والعادات في بعض الجهات أن يقوم الاستمتاع بين الرجل والمرأة لكنه قيد بحدود ، حدود عددية ، وحدود زمنية ، وحدود مادية ، فلم يتمكن الرجـــل من تحقيق تلك النزعة ، نزعة الاستمتاع بما هو خارج حدوده ولا يصل إليه ، وعندما يجتاز الحدود ويحقق تلك الرغبة أو النزعة فإنه قد تطبق عليه العقوبة المقررة : عقوبة الدين أو عقوبة المجتمع أو عقوبة القانون أو عقوبة صاحب الحد المنتهك والحق المأخوذ . وكان شيطان الشهوة قد زرع في فكر الرجل الحيلة التي يصل بها إلى تحقيق ذلك المطلب فأعلن معركة حامية الوطيس ضد الأديان والأعراف والعادات المحتفظة ، ولكنه مع حربه الطويلة في هذا الصدد لم يحقق نجاحاً إلا في حالات قليلة أنصبت عليـــه فيهـــا عقوبـــات مقررة أو سوغ له استمتاع محدود بفقه منحرف أو مستغل أو مستغفل .

وخطر له في هذا العصر أن يستعين في حربه الطويلة هذه بالمرأة لا على أن يختلسا – كما كانا يفعلان من قبل – متعة محرمة ربما تكون عواقبها وخيمة عليها وعليه ، ولكن على أن تعلن معركة ضارية مدّعية فيها حقا ضاع عنها فهي تطالب بإرجاعه . وذهب يسكب هذه النغمة في أذنها ، ويـــشحن بهـــا نفسها ، فأحبتها أولاً وأعرضت عنها ثم استمعت إليها ثم استساغتها ثم تبنتها وتجنّـــدت للمعركة الحامية تطالب بالحق المهضوم يناصرها في ذلك رجل يزعم لها أنه يرثي لحرمانها من حق طبيعي لها في الحرية .

وطالبت أن تتحرر من رقابة الأسرة ثم من رقابة المجتمع ثم من رقابة الدين ثم من رقابة الخلق فأتيح لهـــا ذلك وطالبت أن يكون لها حق التملك والاستغلال والسيطرة ، فأتيح لها ذلك ، وانتصرت حسب زعمه وزعمها في جميع المعارك . ولكنهـــا لم تحـــقق رغبة الغريزة في الارتواء من المتعة ، لقد ارتوى هـــو ولم ترتو هي . لقد كانت نتائج المعركة لمصلحته لا لمصلحتها . وكان ما تعدّه انتصاراً لها إنما هو انتصار له لا شك في ذلك .

وتملكتها الحيرة في الاستفادة مما تعتبره انتصاراً لها فلم تعرف كيف تستفيد منه .

كانت المرأة مصونة لا تعبث بها الأيدي ولا العيون ، يقدّم لها الحب في حرارة العاطفة وصدقها ، وتمنح لها القلوب في إخلاص وتفان ، وتراق من أجلها الدماء على الأعتاب ، وهي في كل ذلك متمنعـــة متذللة متحكمة ، ســـواء كان ذلك في المنهج المشروع أو حتى في المنهج الممنوع .

أما وقد خيّل إليها أنها انتصرت في هذه المعركة التي افتعلها لها الرجل فأخرجها إلى حيث شبعت منها الأيدي والعيون حتى مجّتها وأعرضت عنها ، فأصبحت هي التي تلهث وراءه مخالفة بذلك سنّة الفطرة التي عبئت بها الأنثى في المخلوقات جميعاً ، وصارت تقدم وسائل الانتباه للرجل ولكنه قد ارتوى من مشهدها وملمسها عزف عنها ، فكانت تلهث وراءه بكل الوسائل ، تنصب حوله الشباك لتوقعه بعد أن تذل وتبذل من كل مقوماتها ، فطاردته باللحظة والحركة والكلمة واللمسة المقصودة . ثم فتحت من خزانتها رصيداً ضخماً تشتري به مساحيق التجميل ، فلم يؤثر كل ذلك عليه ، فكشفت له عن جسمها وهي تحتك به في العمل والشارع فلم يثر ذلك اهتمامه ولم يغنها شيئا .

وحار شيطان الغواية عندها فلم يعد يعرف ما هو السبيل ، لعب بشعرها فشكّله على مئات الأشكال ، ولعب بوجهها حتى أخرجه من خلقته البشرية إلى صناعة الدمى ، وحتى أن الناظر لا يجد صلة بين وجه تحمله الأنثى وهي مارة في الشارع ووجه تحمله تلك الأنثى نفسها وهي قارة في البيت ، بل لعلها تتخذ لكل حفل ولكل وقت وجهاً غير الوجوه السابقة .

ولعب بجسمها فخنق منه مناطق حتى كادت تتقطع ، وأبرز منه مناطق حتى صارت كأنها ثآليل ضخمه ، أو نتوءات تتولد عنها أجسام أخرى غريبة .

واستمرت به الحيرة فكشف من جسمها أكثر أجزائه حتى لم يبق منه مستوراً إلا الجزء اليسير، وعاد فستر منه كل شيء ولكن كل ذلك لم يغن فأصبحت المرأة تلهو باللباس ، تكشف وتستر، وتستر وتكشف ، وتطيل وتقّصر ، وتقصّر وتطيل ، وهي في كل ذلك تستجدي النظرة والبسمة والكلمة واللمسة ، ولكن الرجل يمر بجانبها في برود ، لأنه قد شبع وارتوى وأصبح ينظر إليها وهي كاسية كما ينظر إلى دمية علقت عليها ثياب للعرض ، وينظر إليها وهي شبه عارية كما ينظر إلى أفخاذ البقر المسلوخة وهي معلّقة في دكاكين القصّابين ، لا تبعث في النفس إلا الأسف أو الاشمئزاز ..

وجدت المرأة أن ما اعتقدته انتصاراً لها لم يحقق لها الحلم الوردي ، ولم يشبع منها إحساسها الفطري ، فتمادت تبتكر جوانب أخرى للمعركة تشغل بها نفسها ، فطالبت بكراسي الحكم ، وطالبت بآلات العمل ، وطالبت بقلب الوضع العائلي ، وطالبت أن تقوم هي بأعمال الرجل وأن يقوم الرجل بأعمالها ، ونالت كل تلك الطلبات ، ولكنها مع ذلك بقيت في حيرتها متذبذبة متأرجحة متألمة ، والرجل ينظر إليها ساخراً مستهزئاً .

حاربته بالأنوثة المتقلبة فلم تفلح ، حاربته بالأنوثة العارية فلم تفلح ، فاعتقدت أنها سوف تفلح إذا حاربته بخصائص الرجولة فلبست لباسه وتولّت عمله وجلست في مكانه ، ولكن هذا أيضاً لم يؤد إلى نتيجة . لقد انتصر الرجل على المرأة حقاً وانتقم منها انتقاماً رائعاً وأخذ بثأره الذي ضاع منه آلاف السنين .

لقد كان باب الخباء أو باب البيت عند المرأة بمثابة ساحـــة القتال تراق فيه الدماء من أجلها دون حساب ، وإن همسة خافتة أو إشارة خفيفة تكفي لسلّ السيوف وتقطيع الرقاب ، أما الكلمة أو الصرخة منها فقد كانت تشعل نيران حروب وتقضي على آلاف الرجال الأبطال، وكم من دماء أريقـــت علـــى قدميها وبين يديها وهي تنظر معجبة بنفسها .

وكم من أبطال أعزاء يذلون أمامها ويتوسلون إليها ، بل إن منهم من يضفي عليها لقب المعبـــودة وينظر إليها كما ينظر إلى إله ، فإذا جادت عليه ببسمة أو كلمة ، رقص من الـــسعادة وغـــشي مـــن الفـــرح .

لقد انقلبت القضية الآن وأصبحت تلك المرأة العزيزة المحبوبة التي يتقاتل الرجال من اجلها تجري في الشارع عارية الرأس مكشوفة الصدر والسوق ملطّخة الوجه كأنما وقعت في بركة من الوحل تلتمس كلمة إطراء فـــلا تسمعها ، وتستجدي نظرة إعجاب فلا تلمحها . أما حرارة الغزل التي كان يـــسكبها القلب المحب المحروم في آذان الحبيبة المصونة فقد أطفأتها لهفة المرأة المتحررة في الحصول علـــى أي رجـــل يضعه القدر بين يديها .

لقد كان الرجل يقول الغزل وينظم الشعر ويركع بين يدي المرأة ليحظى بالحب . وبعـــد هـــذه المعركة التي انتصر فيها الرجل على المرأة انتصاره الحاسم ، وانتقم منها انتقامه القاسي أصبحت المـــرأة تستجدي الرجل بلغة الغريزة ، لغة الغريزة الوقحة التي لا تخشى ، وافتح ما شئت من الإذاعات المرئيـــة والمسموعة واستمع إليها تغني وانظر إليها تتحرك . إنك لن تسمع من أغانيهـــا إلا صـــرخات الغريـــزة المبحوحة في أحط حالات الهيجان، ولن ترى من حركاتها إلا أحط الحركات الخليعة عند شـــدة الطلـــب وخشية الحرمان . ولا شك أن هذا اللون إنما يقدم بعد الرقـــابة والتهذيب، أما ما يقع وراء ذلك فالمرأة المنتصرة أدرى به وأعـــــــــرف .

ألا ترى معي أيها القاري الكريم أن الرجل الذي طالب بحقوق المرأة ليوصلها إلى هذا المستوى قد مثّل معها في إتقان دور الأعرابي مع ألهه من الحـــــلوى .

الحُـــــــرَّية المَهْـــــدُورة

من الأشياء التي أصبحت ضرورية لكل من أراد أن يتكلم أو يكتب : كلمة ((حريـــة المـــرأة)) فهي بالنسبة لهم كوسائل الإيضاح في المدارس لا يمكن أن يتعلم الإنسان بدونها ، وأينما اتجهت قابلتـــك هذه الكلمة كما تقابلك نصائح شرطة المرور في اللافتات على جوانب الطرق .

تقابلك في كل جريدة ومجلة حتى المدرسية منها وفي مختلف مراحلها ومن البـــنين والبنـــات ، وفي الندوات ، وفي المؤتمرات ، وفي كل مكان .

بل إنها لو أمكن أن تقدم في طبق مع ألوان الطعام أو الشراب لقدِّمت .

ولا شك أن الحرية التي يتحدث عنها كل فريق من هـــؤلاء ليس لها مفهوم واحد ولا معنى واحد ولا مظهر واحد ، وإنما تختلف مفاهيمها ومعانيها ومظاهرها من شخص إلى شخص ومـــن مـــستوى إلى مستوى . ولعل أحرّ الناس دعوة لها وتشبثا بها وحماسة لتحقيقها إنما هم المراهقون فكريـــاً أو عمريـــا ، وعندما يتحدث الفتى أو الفتاه من المرحلة الإعدادية أو الثانوية عن حرية المرأة فإنما يقصدان صورة معينة محدودة هي أن لا يحرمهما المجتمع من لقاء في الخلوات والمنتزهات يتبادلان أحاديث الإعجـــاب والحـــب والشغف والقلب المطعون بسهام العيون .

وما مع ذلك ، فلو سمح للفتاة بذلك لكانت في نظر نفسها ونظر صاحبها حرة قد نالت حقوقها ، وربما أضافت إلى ذلك أن لا ينتقدها أحد وهي تقلد نجوم السينما والتمثيل التي تـــشاهدها في الـــسينما والإذاعة المرئية في لباسها وحركاتها وتزينها ، بل وفي لهجة حديثها وفي استعمال مساحيق الزينة إذا كانت أمها تستعملها أما إذا لم تكن أمها كذلك فتعتبرها رجعية وتحاول هي أن تحصل على ما لم تجده عند أمهـــا لتقنع الزملاء والزميلات وتقنع نفسها أنها فتاة حرة متقدمة تتصرف كما يحلو لها .

وعندما نجتاز هذا المعنى البسيط للحرية عند المراهقين والمراهقات ونحاول أن نجد له مدلولاً – في واقع الحياة – حرمت منه المرأة عند من يتخذون لأنفسهم سمت المفكرين والفلاسفة أو على الأقل سمت الأدباء والكتّاب . فإنه يعسر علينا أن نجد مدلولاً للحرية حرمت منه المرأة بقسوة الرجل وتحكمه ، ولعل الدعوة القائمة اليوم إلى تحرير المرأة والتي لا تفتأ تنعق في كل زاوية ومكان هي في حقيقتـــها وجوهرهـــا تحمل معنى الاستعباد والاسترقاق أكثر من أي موقف آخر .

إن المرأة التي تختار بكامل حريتها أن تبقى في بيتها . وأن لا تخرج منه إلا لـــشأن مـــن الـــشؤون الضرورية ، يعتبرونها غير متحررة وهم يعملون بجهد ومشقة لإخراجها مستعملين كل ما يجـــدون مـــن وسائل ، فإذا استسلمت لهم وخرجت متسكعة في الشوارع مبحلقة في المتاجر قالوا عنها إنها تحررت وألا فهي في منطقهم لا تزال مستعبدة . هذه المرأة بقيت في بيتها مختارة وخرجت منه مكرهة فمتى كانت حرة ؟ ومتى كانت أمـــة ؟ أعندما كانت ملكاً لإرادتها وتفكيرها ، أم عندما كانت ملكاً لإرادتهم ودعايتـــهم وغوايتهم .

والمـــرأة التي تخرج إلى الشارع مرتديـــة عباءتها الضافية الفضفاضة ساترة كل جسمها بكامـــل حريتها وإرادتها يعتبرونها غير حرّة ، ولا يزالون بها حتى تخلع عنها ثوبها الساتر وتستجيب لطلبات الموضة وأعين المتفرجين . فمتى كانت هذه المرأة حرّة ؟ عندما لبست ثوبها الساتر برغبتها وإرادتها وتفكيرها ، أم عندما نزعته عنهـــا استجابة لرغبتهم وخوفاً من لذعاتهم وانسياقاً لإرادتهم .

ولعل مشكلة المرأة عندنا اليوم في ليبيا بين الحرية وعـــدم الحرية تبرز بـــروزاً واضـــحاً . لقـــد اختارت المرأة المسلمة في ليبيا موقفها الكريم بحرية وإرادة ، ولكننا في الواقع لم نتركها لحريتها وإرادتهـــا واختيارها وإنمـــا جندنا كل ما نملك من القوى لتسييرها في المنهج الذي يراه شراذمـــة من مقلدة الغرب ونكاد نجلدها بالسياط لنضعها في طابور مع بنات لندن وباريس .

وليس من الغريب أو النادر أن تشاهد مدّرسة فاضلة أو ربة بيت محترمة كانت إلى يـــوم قريـــب تسلك مسلكها الحي الكريم ، فإذا بها في مناسبة حفلة أو دعوة اجتماع قد غيرت مسلكها فجأة وطلعت عليك بطلعتها الجديدة التي مـــا كانت تجول في حسابك ولا حسابها ، وعندما تسألها عن ســـبب هـــذا التغيّر تجيبك في حسرة : إنه ضغط المجتمع الصغير الذي تعيش فيـــه ولذعات الفارغين والفارغات ممـــن يقدرون الثقافة والحضارة بالثوب والحلية .

هذه المدّرسة الفاضلة التي قضت فترة صالحة من عمرها في مـــسلك رصـــين ارتـــضته لنفـــسها وتخرجت عليها أجيال من فضليات الفتيات كانت توصيهن بالحيـــاء والحشمة والـــسترة ، ثم وجـــدت نفسها مضطرة إلى إن تخلع عنها ثوبها لتستطيع أن تواصل حياتها في مجتمعات قـــد انحرفت ، ولا أســـهل عليها من نبذ الفضائل بالتحجر والجمود ووصف الرذائل بالتقدم والتفهم والتحرر .

متى كانت هذه المدّرسة مستعبدة ، حينما كانت تسير بوحي من فكرها وضـــميرها وإرادتهـــا أم عندمـــا خضعت لإرادة الآخرين خوفاً من أن يصفها الواصفون بالتأخر والجهل ؟ .

الألسنة والأقلام اليوم تسوق المرأة في سرعـــة وعنف إلى نمط من السلوك غريب عنـــها وعـــن إرادتها ، وهي حريصة أن لا تترك لها فرصة التريث والتفكير في هدوء قبل أن تصل بهـــا إلى نتائجهـــا . وإنما تسوقها في غير وعي ولا إدراك بعد أن خدرتها بوسائل الدعاية والإعلام المختلفة .

والواقع أن المراة لم تستعبد في يوم من الأيام ولم تهدر حريتها وتفقد كرامتها كما يقع ذلك في هذا العصر الذي جعلها تتصرف راضية فرحـــة حسب رغبة غيرها دون أن تملك حتى مجرد التفكير الـــسليم في موقفها .

الاستِعمار بينَ الرَجُل وَالمـــَرأة

إنني لم اسعد بسماع الندوة القيمة التي عقدتها المذيعة الناجحة عفاف زهران للأديـــب الـــصادق النيهوم ، وإنما نقل إليّ الأصدقاء بعض ما دار فيها ومنها كلمة النيهوم التي رددها في اجتمـــاع الاتحـــاد الاشتراكي العربي وهي قوله : إن المرأة في ليبيا لم يستعمرها الإنجليز ولا الأمريكان وإنما استعمرها الرجل .

وكلمة الاستعمار من الكلمات المظلومة التي استعملت في غير معناها الاشتقاقي اللغـــوي، وإنمـــا جرى بهـــا العرف في منطق السياسة فأصبحت تدل على كل شعب متسلط يبتز خيرات غيره ويـــتحكّم في مصيره .

ومعنى التسلّط والتحكّم والابتزاز هو ما يقصده النيهوم في عبارته السابقة .

فهل كان الرجل حقاً مستعمراً للمرأة بهذا المعنى وهل لا يزال كذلك ؟

إذا قصرنا البحث على ليبيا فإن الحياة فيها يبدو على نمطين متباعدين .

النمط الأول : حياة المجتمع الريفي حيث يغلب عليه الفقر وشظف العيش ، والعلاقة هناك بـــين الرجل والمرأة ليس فيهـــا استعمار ولا تحـــكّم ، وإنما فيها تعاون وبذل لجهود متواصلة يـــشترك فيهـــا الرجل والمرأة ، وعمل واضح لكليهما على مسرح الحياة يقدم فيها كلاهما نتائج كفاحه لصالح الأسرة .

أما النمط الثاني : فهو صورة المجتمع في الحواضر والمدن الكبيرة حيث الحياة الاقتصادية للأسرة لا تعتمد على الزراعة وإنما تعتمد إما على التجارة أو الوظائف أو ما شابه ذلك .

وفي هذه البيئة قد نجد صورة للاستعمار إذا أردنا أن نستعمل هذه الكلمة في العلاقة القائمة بـــين الرجل والمرأة في الأسرة ، ولكن الاستعمار هنا يكون على العكس ممـــا ذهب إليه النيهوم تمـــــاماً . إن المرأة في الواقع هي المستعمرة المستغلة المتحكمة . وليس الرجل إلا موظفاً عندها ، عليه أن يكدح ويعمل ثم يأتي بثمرات كدحـــه ونتاج عمله إلى البيت حيث تتصرف المرأة وتستمتع بثمرات المجهود ، وبنظـــرة بسيطة إلى ميزانية الأسرة تتضح حقيقة الاستعمار ، وبقطع النظر عن الاحتياطي المدخر لهما جميعاً وعـــن مصاريف البيت المشتركة من غـــذاء وماء ونور فأين تذهب الميزانية ؟

أول البنود بنود الهدايا والصوائب في المناسبات ، ولا شك أن المرأة تأخذ منه مـــا لا يقـــلّ عـــن **90%** .

أما البند الثاني فهو بند اللباس ، ولا شك أن ما تدفعه المرأة في شهر يكفي الرجل سنه .

أما البند الثالث : وهو بند الزينة ، فلعل أهم ما يحتاجه الرجل منها شفرات وفرشـــاة للحلاقـــة والأسنان ، وقدر نسبة هذا إلى ما تستعمله المرأة وتستهلكه من مساحيق وعطور ومصاغ .

لست أدري هل الأستاذ النيهوم صاحب بيت أم لا يزال عميلاً للفنادق والمطاعم ، فـــإذا كـــان متزوجاً وخطر له أن يقوم بحملة تفتيشية إحصائية تقديرية على نسبة الميزانية التي يملكها وتملكها ربّة بيته يظهر له العجب ، وسوف يتضح له حقاً أنه كان مخدوعاً في نفسه وأنـــه كان مستعمراً لقوة لينة هنيـــة هي زوجته المحترمة ، سوف يجد أنها تملك من الثياب ما يكفي لقرن ومن تلك الثياب ما اســـتعمل مـــرة واحدة ولن يعاد استعماله ، وإن طلب المزيد لا يزال مستمراً وانه لن يظهر في السوق شيء جديـــد إلا كان لهـــا منه نصيب ، ومع ذلك فلا يمضي موسم ولا تمر مناسبة حتى تمتص المـــستعمرة مقـــداراً مـــن الميزانية تضيفها إلى رصيدها .

وعندما تكون الزوجة مثقفة ومتحررة فهي توشك أن تستعمر حتى عقله وذوقه . فعليه أن يعمل وعليه أن يسّلم إليها نتائج عمله لتمسك الحساب . وعليه أن يستسلم لها حتى في حاجاته الخاصة ، فهي التي تختار له البذلة والحذاء ورباط العنق وتشتري له القميص والجورب والمنديل ليبدو في الشكل الـــذي يفضله ذوقها ، ولكنها لا ترضى له أبداً أن يقوم لها بنفس الدور فيختار لها أحذيتها وفساتينها وجواربهـــا بنفس المنطق ، أي أن لباس الزوجة ينبغي أن يكون حسب ذوق الزوج . أنها لا تسلم بهذا ولا ترضى به أبداً ، أنها وحدها صاحبة الذوق الأفضل ولهـــا وحدها أن تتصرف ، ومن حقها أن تتسكع بين المتجـــر ودور الأزياء لتختار منها ما تريد ، وعندما تختار فإنها تصمم وتنفذ ولو انطبقت السماء على الأرض .

وحتى في البيوت المحافظة التي لا يسمح فيها للمرأة الصغيرة بالتسكع ومباشرة البيع والـــشراء في الأسواق فإنها تشترط على الرجل الفاضل أن يحمل إليها قطعاً صغيرة من أنواع مختلفـــة مـــن القمـــاش الموجود في السوق وهي التي تختار وتحدد الكمية والنوع ، وعلي السيد الفاضل أن يحضر لها ذلـــك وألا وقعت المشاكل . هذا بالإضافة إلى ما يأتيها عن طريق القرائب والعجائز المحترفات اللاتي يقـــدمن هـــذه الخدمات للبيوت المحافظة ، وينقلن إليها أخبار السوق بأسرع مما تنقله أحدث وسائل وكالات الأنباء من أخبار العالم .

الواقع أنه إذا سمحنا لأنفسنا أن نستعمل كلمة الاستعمار في المسلك الذي يجـــري بـــين الرجـــل والمرأة ، فإن القائم بدور المستعمر المتحكّم المستفيد إنما هو المرأة لا الرجل على جميع الظـــروف ، بـــل إنهـــا تستعمل نفس الأسلوب وتتكلم بنفس المنطق .

لو سألت أيـــة دولة استعمارية عما تستفيده من استعمارها لبلدان الناس ؟ لأجابتـــك في بـــراءة ظاهرة وهل جئتها لأستفيد ؟ إنما جئتها خدمة للإنسانية ، ونشراً للحضارة ، ورفعاً لشعبها المتأخر ، وقد خسرت من أجلها الكثير من المال والجهد . هذا ما كانت ترددده فرنسا وهي تمتص كل خيرات تـــونس والجزائر والمغرب، وهـــذا ما كانت ترددده ايطاليا وهي تمتص خيرات بلادنا، وحتى العجوز البريطانية في فترة احتلالها لبلادنا وهي تمر بالبلد كما يمر الإعصار تجتاح كل شيء حتى أعمـــدة التليفـــون وخـــشب سقوف الثكنات العسكرية ، كانت لا تخجل أن تردد تلك النغمة فتزعم أنها لم تكسب من ليبيـــا وإنمـــا كانت تنفق عليها من خزانتها الواسعة .

والمرأة في البيت تمثل هذا الدور ببراعة ، فهي تتلقى ما يحصل عليه الرجل بجهود مضنية توزعهـــا حسب ميزانية أعدتها تنفق منها في سخاء على بنود معينة وفي تقتير على بنود أخرى ثم هي لا تفتأ تتحسر وتصيح لأنها لم تستفد من هذا البيت إلا الحرمان والتعب دون قريناتها وزميلاتها .

وموقف المرأة العاملة التي تكسب أوضح في هذا الباب ، فرغم أنها تمثل الشريك صاحب النصف في المسؤولية على البيت ، وأنها تخلت عن التزاماتها لخادمة أو قريبة حتى تساعد علـــى تحـــسين الحالـــة الاقتصادية للأسرة . رغم ذلك فإن الدخل الذي يأتي من عملها إنما ينصرف إليها فقط لا يتسرب منـــه

قليل ولا كثير إلى الأسرة ، وبعد أن تمتلئ الأرفف والخـــزائن بالمصاغ والملابس يقبع باسم صـــاحبته في مصرف أو يندس إلى مكان خفي في حقائب قريبة ، فإذا تجمع منه مبلغ محترم أمكن أن يـــشترى عقـــاراً باسمها فقط ، وهي مع كل ذلك تناوش دخل الزوج وتأخذ منه حقها ولو في صورة هدايا يقدمها إليها في المناسبات السعيدة في الموالد والأعياد .

هذه صورة مصغرة عن الجانب الاقتصادي، أما في الجوانب الأخرى فالمرأة فيه على موقفين :

الموقف الأول للمرأة التـــي يقال عنها متحررة واستعمارها للرجل واضح لا يحتاج إلى حديث ، فهي التي تأمر وتنهى في البيت ، وهي التي تحكم وتقرر ، وما موقف جنابه معها – على أحسن تقـــدير – إلا موقف الموظف الصغير أو التابع المؤدب ، وتأمّل صورتهما يسيران في الشارع وهي تعرض فتنتها على الناس يحمل عنها طفلها أو الحاجيات التي اشترتها يسير حيثما تسير ويقف عندما تقف . أليس موقفه معها موقف الخادم الأمين .

أما الموقف الثاني فهو للمرأة المحافظة وتمثل مع الرجل موقف المستشار أو الخـــبير الاســـتعماري المحنّك مع الحاكم الساذج لشعب مغلوب يتمتع الحاكم ببريق اللقب والمظهر الخـــارجي ويخطط المستشار ويتصرف كما يشاء عن طريق الحاكم نفسه .

التسَاوي وَالمُساواة بين الرّجُـــل والمـــَرأة

هذه القضية هي الأخرى أصبحت كقضية الحرية في موضوع المرأة في هـــذا العصر . فما يبلـــغ فتى أو فتاة مرحلة من العمر يستطيعان فيها أن يحركا ألسنة للحديث أو أقلاماً للكتابة حتى يثيرا قـــضية تساوي المرأة والرجل ووجوب المساواة بينهما، وتتشبث المرأة بموضوع التساوي تشبثاً غريباً يـــدل على أن إحساساً داخلياَ فيها يرد عليها ولا يعترف لها بهذه الدعوى.

والحقيقة أنـــه كلما صرخ صارخ بفكرة التساوي هذه ثار سؤال شائك يطلب الجواب: إذا كان التساوي كاملاً بين الرجل والمرأة فلماذا خلقا معاً ؟ هل هما من باب المترادفات في اللغـــة العربيـــة ؟ إذا

كان كل منهما يملك من الخصائص والمزايا ويقوم بمـــا يقوم به الآخر دون فارق فلماذا خلقا معـــاً ؟ إذا كانت المرأة إنما خلقت لتقوم بنفس الدور الذي يقوم به الرجل فلماذا خلقت ؟ ولماذا لم تقتصر حكمـــة الله على وجود الرجل ؟ وإذا كان الرجل إنما وجد ليقوم بنفس الدور الذي تقوم به المرأة فلماذا خلق ؟ ولماذا لم تقتصر حكمة الله على خلق المرأة فقط .

أحسب أن عدم التساوي بديهية من بديهيات الحياة ولكن منطق بعض الناس يرفض البـــديهيات ولا يعترف بها .

زعم زاعمون أنه لا فرق بين الرجل والمرأة ، فردّد هذا الزعم مردّدون وانطلق الباقي يتغنى بهـــذا اللحن الجديد في رتابة وانفعال .

وعندما تصدم الحياة أحد الناس بالفروق التي بين الرجل والمرأة في المعاملات اليومية الجاريـــة ، لا يحسر أحد أن يذكر ذلك بل يطأطئ لهـــا ويمضي ، لأنه لو أشار إلى ذلك لنظرت إليـــه الأعـــين شـــزراً وتناولته الألسنة الحـــداد بالنقد العنيف ووصفته بالغباوة والجهل والرجعية ، فهو يـــرى أن الـــشك في سلامة عقـــله أيسر عليه من التعرض للغضبة العارمة التي تنصب عليه .

وعندما قرر أولئك الناس فكرة التساوي بنوا عليها حق المـــساواة ، فمـــا دام الرجـــل والمـــرأة متساويين في مواهب الفطرة ، فيجب أن يتساويا في الحقوق والواجبات والمعاملات .

إن دعـــوى تساوي الرجل والمرأة باطـــلة من أساسها . ولو تساوت المرأة مع الرجل لفقـــدت قيمتها ، وعدم تساويها معه يبدأ من أبسط الأشياء إلى أعمقها : فابتداء من الحركـــات الظـــاهرة مـــن اللفتات والإشارات والانحناءات ، ومن تراكيب الجسم والنسبة بين أعضائه والنسبة بين أجزاء الأعضاء إلى الخصائص النفسية وما تحمل في ثناياها وإلى مـــدى الإشراق الروحي ، والمنطلق الفكري والعقلـــي ، والغناء العاطفي ، والمدار الخيالي وغير ذلك من المواهب التي أودعها الخالق في البشرية ، كل ذلك تختلف فيه المرأة عن الرجل ، ويختلف فيها الرجل عن المرأة ، وليس يعني هذا الاختلاف بينهما أفضلية أحـــدهما على الآخـــر فإن للأفضلية ميزاناً غير هذا الميزان ، وقضية الأفضلية لا ترتبط بهذا وإنما ترتبط بـــسلامة سير كل منهما في المنهاج الذي رسمه لهـــما مَن وهب لهما حياتهما وقواهما المختلفة .

أما ما يعنيه عدم التساوي هذا بينهما فهو أن كل واحد منهما مزود بالإمكانيات التي تـــساعده على أداء دوره كاملاً في الحياة ، وأن لكل واحد منهما دوراً لا يستطيع أن يقوم به الآخر قياماً كاملاً .

أما قضية المساواة بينهما في المعاملة وفي الحقوق وفي الواجبات فلها أسس غير هذه الأســـس، لا شك أن ما تتساوى فيه الواجبات إذا أودّيت بكفاءة متساوية تتساوى فيها الحقـــوق، وتبقـــى هنالـــك الوجبات والحقوق التي ينفرد بها كل منهما عن الآخر ، وعدم المساواة في هـــذا النـــوع مـــن الحقـــوق والواجبات هو عـــين العدل والنزاهة ، ومن الأمثلة البسيطة على ذلك أن الطفل هو ولد لهما معاً ولكن القوانين والشرائع كلها تعتبر أن من واجب الأم ومن حقها أن تتولى حضانته ومن واجب الأب أن يعطي

النفقة ، فما رأي دعاة التساوي والمساواة لو أن قاضياً حكم بحق الحضانة للأب في طفل عمـــره ثـــلاث سنوات وأوجب على الأم أن تدفع له النفقة ، ولو كان ذلك من أم تكسب مثل ما يكسب الرجـــل أو أكثر . الواقع أن المرأة تتمتع بكثير من الامتيازات تجعلها غير خاضعة للنقاش والبحث ، ثم هي تطالب أن تسلب الرجل مـــا بيده بدعوى التساوي والمساواة .

الَتفَوّق بَينَ الرَجُل والمـــَرأة

في تيار الحملة العنيفة التي تريد أن تعطي للمرأة مكان الرجل في ميدان الحياة والعمل كنت تسمع من حين إلى حين متحدثاً أو كاتباً ذكراً أو أنثى يزعم أن المرأة أقوى من الرجل أو أذكى أو أشد تحمـــلاً للمشاق أو أنها تتفوق عليه تفوقاً عامـــاً أو في ميدان من الميادين .

وحكاية التفوق هـــذه يمكن أن ينظر إليها من عدة زوايا ، فتفوق المرأة على الرجل في المواضـــيع التي خصصتها لها الفطرة ، أمر طبيعي وواقعي لا ينكره إلا مكابر . وتفوق الرجل على المرأة في المواضيع التي هيأتها له الفطرة أمر طبيعي وواقعي أيضاً لا ينكره إلا مكابر .

وتفوق المرأة على الرجل في أمور الرجولة أمر باطل لا يدعيه إلا مكابر ، وتفوق الرجل على المرأة في أمور الأنوثة أمر باطل لا يدعيه إلا مكابر .

هذا مسير الفطرة ومسير الواقع ومسير الطبيعة بالنسبة إلى جنس الرجل وجنس المرأة . أما قضية الأفراد الشواذ من الرجال والنساء فهي قضية واقعية أيضاً لا يمكن أن تتكرر ولا يصح أن تعتبر قاعدة تجري عليها نظم الحياة .

قد تتفوَّق امرأة على مجموعة من الرجال في شؤون رجالية ، وقد يتفوَّق رجل على مجموعة من النساء في شئون نسوية ، ولكن هذا التفوق من الرجل والمرأة لا يزيد على أن يكون شذوذاً عن قاعدة عامة .

إن الخالق عندما خلق الإنسان جعله من ذكر وأنثى وجعل لكل منه خصائصه التي يمتاز بها عن الآخر، فتنازل أحدهما عن خصائصه ومحاولة التشبث بخصائص الآخر انحراف عن الفطرة، وشذوذ عن القاعدة ، ومجلبة للسخرية .

إن من الخصائص التي وهبتها الفطرة للرجل أن يكون قوياً في بدنه ، عارفاً بطريقة استعماله لتلك القوة والاستفادة منها في مجال الحياة ، معتزاً بقوته وخشونته لأن هذا من كمال وصف الرجولة ، ومن خصائصه في هذا أن يتفوّق على غيره ، فإذا تخلى عن هذه الخاصية ، وأخذ بدلاً منها قسطاً من الليونة والفسولة حتى كان أحنّ من أم ، وألطف من ممرضه ، وأرق من مضيفة ، وأخنث من ساقية . فهل يكون بهذا التفوّق مصدر احترام ، أي هل يعتبر هذا التفوّق منه عليهن باعثاً على الفخر والاعتزاز . وهل يجيء أحد فيزعم أن فلاناً هذا كان عظيماً لأنه تفوّق على المرأة في أخص صفاتها ؟ ما قيمة هذا التفوّق لو وقع ؟

وإذا انعكست القضية فجاءت امرأة لها من خشونة البدن وقوة العضلات ، وثخانة الأصابع ، وغلاظة الصوت ، ما تخنق به الأسد وتصرع الفيل ، وتقيّد عنترة ، وتسبق السليك ، وتمرغ كلاي في حلبة الملاكمة . فهل يعتبر هذا التفوّق البدني من مزاياها ويعد من فضائلها ؟ إننا قد نعجب في عمل هذه المرأة ونصفق له ولكنه كالإعجاب الذي ينبعث منا ونحن نصفّق للثور في حلبة المصارعة ، إن نظرتنا إليها خرجت عن اعتبارها امرأة إلى اعتبارها وحشاً مدرباً في سرك متجول .

إن ذلك الرجل وهذه المرأة لا يزيدان عن أن يكونا شذوذاً يتحدث عنهما الناس للتسلية أو السخرية أو للانحراف عن الفطرة .

والمقصود من هذا كله أن دعوى تفوّق الرجل على المرأة أو المرأة على الرجل هكذا عموماً دعوى باطلة لا يمكن أن تصحّ ، ودعوى تساويهما هكذا على العموم دعوى باطلة لا تصح . وإن الرجل ولا شك متفوّق على المرأة في مواضيع الرجولة ، وأن المرأة ولا شك متفوّقة عليه في مواضيع الأنوثة ، فإذا تفوّق رجل على المرأة في شؤون الأنوثة فهو رجل شاذ حرمته الطبيعة أكرم صفاته ومنحته

صفات غيره ، وإذا أظهرت امرأة تفوّقا على الرجل في شئون الرجولة فهي امرأة شاذة حرمتها الطبيعة أكرم ما تتجمل بـه المرأة وتعتز به الأنثى وأعطتها صفات غيرها .

والواقع أنه في غمرة الدعوة إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة ، والدعوى أحياناً بأن المرأة متفوّقة على الرجل ، حاول عدد غير قليل من النساء وأغلبهن ممن وهبتهن الطبيعة قدراً من الذكاء وحرمتهن من نعمة الجمال فهن يحاولن أن يعوضن ما حرمنه من الجمال بما يحصلن عليه من مراكز القوة في ميادين الحياة ، فانطلقن يعملن أعمال الرجال محاولات أن يلفتن إليهن الأنظار ، ويحصلن على كلمة الإعجاب .

وقد نجح بعضهن في ذلك . وعندما تستعرض قطاعات النشاط البشري ، وتمرُّ أمامك أشرطة طويلة بمن يوجهون دفة العلم أو الاختراع أو الأدب أو السياسة أو الحكم أو غير ذلك مما يجري في الحياة قد تصافح عينيك في فترات قليلة متباعدة متقطعة صورة امرأة تقتعد مكاناً مرموقاً تصرف فيه دفة الأمور كما ينبغي أو قريباً مما ينبغي ولكن تلك الصور القلائل ضائعة ولا شك في كثرة صور الرجال الذين يتحكمون في إدارة الأمور ويجيدون تصريفها .

الخـدَاع بَينَ الرّجُـل وَالمـَرأة

لعل المرأة في جميع فترات تاريخها لم تخدع عن نفسها بالمقدار الذي تخدع بـه اليوم ، ذلك أن الرجل كان يخدعها في القديم عن نفسها – ليصل إلى ما مأرب ما – بإطراء الصفات الحقيقية التي تختص بها المرأة كالجمال والحب والحنان ، أما في هذا العصر فقد تظاهر الرجل بأنه يسلم للمرأة كل شيء – وذلك ليبلغ منها كل شيء – وراح يلقي في أذنها الرقيقة بمختلف الأساليب أن المرأة أذكى وأقوى وأجمل وأصبر وأكثر تحملاً ومعاناة وإتقاناً من الرجل في جميع ميادين الحياة ثم ينطلق لاهثاً في بطون التاريخ حتى يجد اسم امرأة قامت بعمل ما فيأتي به إليها ليقدمه كدليل وبرهان: جاندارك ، شجرة الدُّر ، بلقيس ، خولة، ومنهم من يتجرأ حتى يستشهد ببعض أمهات المؤمنين .

وانخدعت المرأة فعلاً بذلك أو أرادت أن تنخدع ، وخيّل إليها أنه يجدر بها أن تقوم بجميع أعمال الرجل وأنها سوف تجيد ذلك أكثر من إجادته، وانطلقت إلى الميدان وبدأت العمل، ولكن التجربة كانت غير مشجعة . انطلقت المرأة تحاول أن تشغل مكان الرجل دون أن يعترض طريقها معترض ، ولكنها وجدت أنها لا تستطيع أن تملأ فراغه بسبب انعدام بعض الخصائص الفطرية التي أودعها الخالق في كل منهما .ولم تعترف بالهزيمة أو الانخداع ، وإنما ظنت أن الرجل بلغ إلى تحقيق ما عجزت عنه ببعض القشور الظاهرية ، قشور اللباس . وبعد أن كانت تترنح على حذاء يثبت على شبه مسمار من الكعب العالي غضبت على ذلك الكعب وجعلت بدلاً منه كعباً قصيرا عريضاً يشبه حافر البغل . ورأت أن الرجل يحتفظ بسراويل طويلة فاعتقدت أن تلك السراويل تساعد على إنجاز الأعمال فقررت أن تلبسه ولكنها حارت كيف تلبسه ، ضيقته حتى صارت كأنما تُحشر فيه بالدق ، ووسعته حتى صار كالجلباب ، وضيقته من أسفل ووسعته من أعلى وضيقته من أعلى ووسعته من أسفل . ولا تزال في حيرة من الأمر ، فلا حافر البغل ولا السراويل المتقلبة استطاعت أن تمنحها المهارة المطلوبة ، ولم يجعلها تقليدها للرجل في المظاهر واللباس قادرة أن تمسك الأعمال المختلفة وأن تجلس في مكانه بنفس السهولة والاطمئنان الذي يمسكه بها الرجل .

ولا تزال المرأة في كل ميدان من ميادين الحياة ، رغم كثرة الدعاوى في التساوي والمساواة – ورغم حصولها على جميع الحريات في بعض الشعوب منذ أزمنة طويلة – لا تزال رغم كل ذلك مخدوعة تُستغلّ جارية غير كريمة .

تستخدمها الدولة سكرتيرة أو طبّاعة أو موظفة تنجز الأعمال البسيطة ، ومهمتها الحقيقية أن تبعث المرح والانشراح في نفوس الموظفين فتلقى حولها عيونهم ويلتزمون مكاتبهم وينجزون أعمالهم ، ولذلك فلا تختار لمثل هذه الأعمال إلا من تتمتع بصفات تكفل تحقيق هذه الأغراض .

وتستغلها الشركة لنفس الغاية ، ولهذا يجب أن تكون جميلة تحسن لقاء الزبائن وتوزيع البسمات وإتقان الحركات ، وتسلم البريد إلى سيادة المدير .

وتعمل في المؤسسة أو المتجر أو أي مكان نفس العمل ، تستغل جارية غير كريمة بطريق غير مباشر ، إما لتشغيل الموظفين أو لجلب الزبائن ، فإذا كان جمالها لا يؤهلها لأن تقوم بمثل ذلك أو كانت أخلاقها لا تسمح لها فإنها لن تنال عملاً وإذا نالته فلن تبقى فيه إلا ريثما يعثر على غيرها .

والباحث عندما يبحث عن المرأة في مجالات العمل في الشعوب المتحررة والتي هي ظالعة وراءها سوف لا يجد المرأة وجوداً حقيقيا إلا في الأماكن التي هي من فطرتها وطبيعتها ، كالتدريس والتمريض ، أو في المواطن التي تُستخدم فيها كجارية ، أما بقية الميادين فلا توجد فيها المرأة إلا بالعدد النزر اليسير الذي يدل على أن وصول المرأة إلى تلك الأماكن والاستقرار فيها ليس هو الطبيعة وإنما هو الشذوذ ، إنها المرأة التي تشذ عن القاعدة فتتفوّق في ميدان ليس لها .

ولعل قائما لو قام بإحصاءات دقيقة في أي دولة متحررة متقدمة ألغيت فيها الفوارق بين الرجــل والمرأة منذ زمان لاتضح له أن المرأة لم تستطع أن تثبت وجودها في كثير من الميادين لأن وجودها فيه ضد الفطرة ، كما يتضح له أن قضية التساوي خرافة لا يمكن أن تثبت مهما دعا إليهــا الرجــل المــراوغ وتمسكت بها المرأة المخدوعة ، وأن النتيجة من كل ذلك أن الرجل استطاع في هذا العصر ان يخدع المرأة خديعة كبرى ، فأخرجها عن نطاق حقيقتها إلى حيث يمكن له أن يستغلها دون عناء أو تعب ، فأوهما بأنه ساواها به ومنح لهــا حريتها الكاملة ، والواقع أنه إنما أوصلها إلى درب يستطيع فيه أن يستمع بها وبكل ما خلقه الله فيهــا دون أن يبذل من جانبه غير كلمات . إنها قصة الإله من الحلوى تعــاد هنــــا مــرة أخرى ، تقدير وتقديس وعبادة ثم التهــــام .

الحَـــــــــــــاكِم

الحقيقة أن الحاكم في العصر الحاضر نوعان :

حاكم تحرّكه الأنظمة وتسيّره القوانين .

وحاكم تحرّكه الرغبات ، وتسيّره العواطف ، فتأتي به الرغبات إلى منــصة الحكــــم وتــسنده العواطف ، ثم تذهب به الرغبات المعرضة ، وتتخلى عنه العواطف المتقلبــة .

يجيء الحاكم فتنطلق وراءه الأصوات وتهتف له الألسنة وتصفق له الجوارح ، وتمــضي فتــرة لا تكون طويلة في الغالب ، فتتحول عنه الرغبات والعواطف ، إما تدريجياً وإما فجائياً ، وينتــهي إلى مــن انتهى إليه الإله من الحلوى ، وتتجه العبادة إلى إله غيره يصنع من نفس المادة وتلتف حولــه الأصــوات والأيدي حتى يستمرئ المكان وينوي الاستقرار فتتكرر القضية ويؤكل الأول وينتصب إله جــديد يغري

على الأكل ، ويستمر الدور والتسلسل ، ولا تقف عملية الدور هذه إلا بشيء واحد هو نزول الـــوحي من السماء ، يبعد آلهة الحلوى عن كراسي الحكم ، ويضع منهاجاً يسير فيه الحاكم الأرضي طبـــق إرادة الحـــاكم الأعلى ، وبترع من نفوس الجماهير شراهتهم إلى صناعة حكام من الحلوى ثم التـــضحية بهـــم والتهامهم . وإفهام تلك الجماهير أنهـــا ليست مطالبة بتقديس مخلوق ولا عبادته ، ولا ملزمة بالـــسير في ركابه كيف ما سار، وإنما هم ملزمون بالسير في منهاج واضح لا يخرجون منه ، وأن في إمكانهم إســـقاط الحاكم دون التهامه .

وقد نزل هذا الوحي فعلاً على سيدنا محمد ρ وسارت به الأمة المسلمة حيناً فسعدت به وبهـــــا البشرية جمعاء ، وتخلى عنه المسلمون فأصبحوا في الحالة التي وصفناها .

وعندما يعرف الحاكم أنه عبد لله وليس إلهاً ، وأنه يستوي في تلك العبودية مع أي فرد من أفراد شعبه ، وأنه مخلوق من لحم ودم وليس من حلوى ، وأنه ينبغي أن يتبع منهجاً واضحاً وضعه عالم الغيـــب والشهادة ، وأنه ليس مبتدعاً ولا خلاّقاً ولا مبتكراً ولا آتياً بالمعجزات ، وإنما هو منفذ فقط وأن مـــــا ينسبه الناس إليه من ذلك إنمـــا هم يكذبون فيه ويعرفون من أنفسهم أنهم يكذبون، كما يعرف هو نفسه أنهم يكذبون، وأنه ليس آلة مسخّرة في أيدي أية مجموعة من الناس ينفذ رغباتهـــا ، ويـــستلهم الرشـــد والصواب منها ، وإنما يستلهم الرشد والصواب من قانون الله .

وعندما تعرف الشعوب والجماهير أنها هي نفسها مسؤولة عن السير في المنهاج الذي وضع لهـــا ومطالبة بالتزامه ، وأنه ليس من حقها أن تضع مناهج تخالف أو تناقض المنهج الذي وضعه الله لهـــا وان الحاكم يجب أن يصل إلى مكانه على أيديها طبقاً للمواصفات والشروط التي جعلتها شـــريعة الله ، فـــإذا وصل حسب تلك المواصفات والشروط فإنه ليس من حقها أن تلعب به أو تتحكم فيه أو تهدده بـــالموت أو الإقالة – ما دام يسير بحكم الله – فإذا انحرف طالبته بالتزام الحق ، فإن تمادى على الباطـــل طالبتـــه بالتخلي عن مكانه لمن هو أصلح منه ، فإن لم يستجب جاز لهـــا حينئذ أن تعامله معاملة الإلـــه المصنوع من الحـــــلوى .

مخـــرُوط الحـــكم

كلـما فكّرت في الحكم خطرت لي صورة لا تبرح مخيلتي ، ويبدو لي أنها صورة تمثل في صـدق حقيقة الحكم وما يدور حوله ، تلك الصورة هي :

مخروط كبير جداً واسع للقاعدة وينتهي بقمة لا تتسع إلا لرجل واحد أو لموقع قـدمين فقـط . حول ذلك المخروط أعداد هائلة من الناس في كل شعب أو أمـة يحاول أولئك الناس في إصرار وعنـاد ومثابرة أن يتسلـّقوا ذلك المخروط ، ويبذل كل فرد منهم ما يملك من جهد للوصول .

لا شك أنه كلما ارتفع المخروط ضاق مجـال التسلّق وقلّ عدد المتسلّقين وكثر عدد الساقطين ، بل إن الذين يسقطون من جوانب المخروط المختلفة لا يحصرهم العدّ ولا يهتم بهم أحد ، ولكن المحاولـة مع ذلك لا تتوقف ولا تخف ، تزدحم الأعداد عند القاعدة ويخف الازدحام مع الصعود . وأخف الجميع حركة وأكثرهم ذكاء وأعرفهم بفنون البهلوانية هو الذي يستطيع أن يستمر في التسلّق مستغلاً الظروف السيئة للآخرين ، فقد يدوس على قدم أو يثبت رجله على خصر متسلّق فيقع ذلك ويستمر هـو حـتى يتمكن من أن يضع إحدى رجليه على كتف آخر متسلّق أو رأسه ليثب منها إلى قمة الهـرم ليقف بعـد أن يكون دفع بأعلى المتسلّقين إلى الهاوية .

ومنذ اللحظة التي يقف فيها ذلك المتسلـق البارع على قمة المخروط ويسترد أنفاسه تبدأ الحياة معه من جديد . فإذا وقف بقدميه على المخروط ، وصرف ناظريه بعيداً إلى الجماهير الـتي تتملـئ بهـا الساحات ، وسرح بفكره ليرى الحقيقة التي يعيش عليها الشعوب ، فإنه سرعان ما تمسك يـد متـسلقّ آخر بقدميه ثم تجذبها خارج القمة وتطوح به بعيداً كما فعل هو بغيره دون أن يستمتع كـثيراً بـالمجهود الذي بذله ووصل به .

أما إذا اعتمد على قمة المخروط بقدم واحدة ولم يصرف نظره بعيداً وإنما حبـسه علـى أقـرب المتسلّقين إليه فجعل كلمـا قرب أحدهم من القمة ركله بالرجل الأخرى وطوّح به بعيداً فإنه ربما يطول به الوقوف على القمة . ولكنه في الحقيقة لا يرى شيئاً ، إنه لا يرى إلا أجسام المتسلّقين وأيديهم تتهافت قرب القمة على الاستمساك برجليه وقذفه بعيداً ، فيعيش على هذا الموقف الدفاعي في عراك مستمر إلى أن تهلك قواه وتخـور عزيمته فيتدحرج دون أن يحقق شيئاً ممـا كان يدور بخلده وهـو يقتـرب مـن المخروط ليبدأ عملية التسلّق .

ربما تكون هذه صورة الحكم عند الدول النامية ، أما الدول الأخرى التي تعتبر أنها بلغت شـأواً من الحضارة والتقدم ، فقد تختلف بعض الاختلاف عن هـذه الصورة في طريقة التسلق . ذلك أن كـل واحد من المتسلقين فيها قبل أن يحاول التسلق يجمع وراءه مجموعة من الناس باسـم حـزب أو مبـدأ ،

يحملون له سلماً للتسلق ، وتبدأ معركة الإزاحة والتثبت ، فكل مجموعة تحاول أن تثبت سلمها وتقسط سلالم الآخرين ، وفي أثناء هذه الحركة يصعد المتسلقون على سلالمهم التي لا تفتأ تتحرك وتضطرب ،منها ما يسقط ومنها ما ينكسر ومنها ما يسلم ،ولكن المتسلق يكون بطيء الحركة فيسبقه من كان أكثر رشاقة وأخبر بفنون البهلوانية ، وعندما يصل أحدهم إلى قمة المخروط يستطيع أن يستعيد أنفاسه ويقف معتدلاً وينظر مطمئناً لأن عملية التسلّق تتوقف ، وهكذا يبقى في مكانه مدة محددة ثم يتدحرج بعدها عن القمة ليخلو المكان وتبدأ عملية التسلق من جديد .

ولا شك أن الحاكم في الصورة الجديدة هو مدين بوصوله للكتلة التي بلغته ، وغالباً ما يكون منفذاً أميناً لرغباتها ومصالحها ومبادئها إن كانت لها مبادئ ، وقد يتخلى عنها وينفرد بشخصيته ويستبد برأيه حتى تتم المدة المقررة له ، وتمثل قصة الإله من الحلوى .

فصُولَ لم تُكتَبْ

عندما وضعت الخطوط العريضة لهذا الكتاب ، وضعت تحت الأقنوم الثالث ((الحاكم)) مجموعة من العناوين هي كما يلي :

1 – الحـــــاكم .

2 – مخروط الحـــكم .

3 – الحاكم فرد من المجتمع .

4 – بروز وظهور .

5 – في أول السلم .

6 – مهارة التسلق .

7 – فوق الكرسي.

8 – عملية الزحزحة أو التدحرج .

9 – نهاية آلهـــة الحلوى .

وعندما بدأت كتابة هذه الفصول ، وجدت أنها تعود بي في أكثرها إلى أبحاث فلسفية لا إلى عرض صور واقعية ، أو أن الصور الواقعية التي يمكن أن تعرض داخل هذه الفصول هي من الضآلة بحيث تختفي في عرض الآراء ومناقشتها .

والكتاب من أساسه عرض وتصوير وليس بحثاً ولا مناقشة ولا دراســـة ، فاكتفيـــت بالفـــصلين الأولـــين من المخطط واعتقدت أنهما يعطيان صورة لما أردت أن أضعه بين يدي القارئ الكـــريم لمـــــا يجري في الشعوب المتخلفة والمتقدمة من صراع على الحكم وكيف يتم ذلك في عملية تسلق وزحزحة .

أيــنَ الرّجُـــــل ؟

قلت في مقدمة هذه الفصول إن الأقانيم الثلاثة هي الطفل والمراة والحاكم ، فأين الرجل ؟

والجواب على ذلك بعبارة صغيرة قصيرة واضحة : إن الرجل هو المطية التي يعتليها هؤلاء الثلاثة بالتبادل أو في حين واحـــــد .

إن الرجل باعتباره أباً عليه أن يكدّ ليسعد طفله ومن يقوم بخدمة طفله ليوفر لهم جميعاً متطلبـــات الحياة . وجميع القوانين واللوائح تلقي عليه المسؤولية في ذلك .

والرجل باعتباره زوجاً عليه أن يكدّ ويجتهد ليوفر لزوجته هناءها وسعادتها ، يخـــرج إلى العمـــل ليأتيها بالمـــال فتبدده على الفساتين والمساحيق والعطور فـــوق المسكن والمأكل ، ويعود إليهـــا ليتـــولى عنها غسل الأطباق وملاعبة الأطفال ومحاسبة الخدم ، ثم يهيئ لها جولة الفسحة ، ومتعة الـــسهر أينمـــا تشاء ، هذا إذا كان زوجاً مثالياً طبع على عقله بخاتم العصر .

والرجل باعتباره محكوماً ، عليه أن يعدّ لسانه للموافقة ، وحنجرته للهتاف ، ويـــده للتـــصفيق ، ورجليه للمسيرة .

الرجل مخلوق تتكدس عليه الواجبات وليس له حقوق . في الجيش عليه أن يحمل السلاح ويقابل العدو ويموت إذا اقتضى الأمر ليسلم الطفل والمرأة والحاكم .

في الشرطة عليه أن يسهر طول الليل وأن يجوب الشوارع طول النهـــار ، وأن يردّ الأذى عـــن الطفل الذي يعبث في الشوارع ، وعن المرأة التي تتسكع متبرجة لتلفت إليها الأنظار ، وأن يتسمع مـــا تنفرج عنه شفاه الغادين والرائحين من كلمات أو همسات ليست راضية عن الحاكم حتى تقطـــع تلـــك الشفاه بكلاليب من نار .

في المزرعة عليه أن يشتغل حتى يتصبب عرقاً ويتقطع تعباً ليصحو في اليوم التـــالي باكراً فيأخـــذ الخضار والفاكهة الطرية ليتغذى بها الطفل والمرأة والحاكم .

في المرعى عليه أن يصارع الحر والبرد ، وأن يقاتل الذئاب والـــضباع ، وأن يحتمـــل العطـــش والجـــوع ليقدم للطفل والمرأة والحاكم لحماً طرياً وفراءً جيداً ، ولبناً طازجاً .

في دوائر الحكومة والشركة عليـــه أن يحمل على ألواح من الخشب نصف يوم كامـــل ليقـــضي أشغال الطفل والمرأة والحاكم فلا تتعقد عليهم الأمور ولا تتأخر عنهم المطالب .

ومع كل هذا فلا تسمع إلا أصوات النقد للرجل إنه مهمل لم يقم بواجبه في عملـــه ورغـــم أن أعمـــال الوظائف تنجز كل يوم ، وأن الأسواق مشحونة بأنواع الخضار والحيوان ، وأن المتاجر ممتلئـــة بأكداس من البضائع ، وأن المباني الضخمة تشاد كل يوم ، وأن جميع هذا وغيره إنما يتم علـــى كاهـــل الرجل وراحته وصحته إلا أن الطفل والمرأة والحاكم فيما يبدو غير راضين ، وأن النقد اللاذع والسخرية الحارقـــة واللوم العنيف والمطالبة المستمرة لا تزال تلاحق الرجل باستمرار .

ولو أتيح لنا أن نسأل من هم أصحاب الحقوق في الحياة ؟

لأمكن أن يجيبنا مجيب بما يلي :

أصحاب الحقوق في الحياة من بني البشر هم :

1 – طفل لا يعي ، يحقق رغباته بالبـــكاء ليثبت للناس أنه يحكم أبويـــــه .

2 – امرأة مشغولة باستبدال أنواع المساحيق والزينة ثم عرض نفسها على الناس لتثبت لهـــم أن الرجل الذي يعيش معهـــا يقوم لها مقام الخادم الأمين يقدم لها كل شيء ولا يحاسبها عن شيء .

3 – حـــاكم مهتم بالهـــتاف والتصفيق ، يفتعل له المناسبات ، ليثبت للناس أنه حاكم محبوب وأنه سوف يطول بـــه البقاء على كرسي الحـــكم .

4 – فتى في إحـــدى مراحل الدراسة : يدخل المؤسسة العلمية كأنما يدخلها وقد جمع عـــــلم الأولين والآخرين ، يمر بالشارع كأنمـــا يدق البلاط ليستقر ويثبت ، وينظر إلى الناس يمرون من حولـــه كأنما ينظر إلى أسراب من الفراش تعبث بها الرياح ، ويتصرف كأنما خلق الله البلاد والعباد من أجله هو فقط ، وأن على البشرية أن تخلي له المكان ليتولى هو قيادتها وإصلاحها .

فإذا خطر للرجل أن يسكت الطفل الباكي ، قيـــل عنه متوحش مجرّد من العاطفة الإنسانية .

وإذا حاول أن يحدّ من تهور المرأة المتبرجة قيل عنه متأخر ورجعي ولا يفهم أصول الحياة في هـــذا العصر .

وإذا سكت عن التصفيق والهتاف للحاكم قيل عنه خائن للوطن وعميل للعدو .

وإذا واجه الفتى المغرور قيل عنه غبي وبليد ويريد أن يوقف ركب الحياة ولم يفتح الطريق للشباب الطموح .

وهكـــذا يجد الرجل نفسه بالنظر إلى جميع عوامل الحياة أنه المخلوق الوحيد في الأسرة الإنسانية التي يجب أن تتكدس عليه الواجبات ، وعليه أن يتحملها ويؤديها في صبر وأن يتقلى مع ذلك ما يجود به الآخرون من أنواع النقد المر والحلو ، إن عليه أن يملأ جيوبه بالمال ليفرغها على مهد الطفل وفي جيـــب المرأة وأن يمرن لسانه على السرعة في صناعة الكذب ليرضي الحـــاكم ، ثم عليه بعـــد كل ذلك أن يثقل ظهره بالأحمال وأن يسير خارج الطريق ورصيف الطريق ليترك المجال للفتى المغرور حتى يمـــر بسلام دون أن يعوقه أحد .

هذه هي الجوانب المشرقة في حياة الرجل في هذه الأيام ، أما الجوانب القائمة فيجـــدر أن تبقـــى مكتومة لئلا تؤذي أحـــداً من الناس .

مَظـــاهر العِبَادة في الأقانيم الثَلاثَة

لا شك أن استعمال كلمة العبادة هنا استعمال مجـــازي ، والمقصود بها في هذه الفصول تقـــديم الإنسان طاعته وخدماته لغيره دون مطالبة بحق مقابل ذلك ولا انتظار لجزاء عليه .

ومظاهر العبادة بالنسبة للطفل تبدو واضحة في السلوك العام فإن جميع الأصوات التي تتحـــدث عن الطفل تعطيه جميع الحقوق وتعفيه من جميع الواجبات رغم أن مرحلة الطفولة قد تمتـــد إلى مـــا بعـــد البلوغ سنوات تبعاً للمراحـــل الدراسية المختلفة ، فإن الطالب مهما بلغ مـــن العمـــر يعتـــبر طفـــلاً . والنصائح التي تلقى على أفراد الأسرة وعلى المجتمع وعلى الدولة أنه يجـــب علـــيهم جميعـــاً في حـــدود اختصاصات كل واحد منهم أن يقدموا الطاعة الكاملة للأطفال ، وأن يقوموا لهم بالخدمة اللازمة ، يعني أن يتحلوا بهذا المظهر من مظاهر العبادة ، الطاعة وتقديم الخدمة .

وحتى أولئك الذين يخالفون هذا الاتجاه ، ويرون أن الطفل عجينة يجب أن تشكل وأن تطلب منها واجبات وان ترغم في بعض الأحـــايين على سلوك معين ، حتى هؤلاء لا يجرأون على أن يعلنـــوا عـــن آرائهم خوفـــاً من أن يوصفوا بالجهل والتخلف . ورغم أن السلوك الفردي قـــد يخالف الرأي المجمـــع عليه الذي تنادي به جميع الأصوات فإن الوضع يبقى كما هو .

ومن الأمثلة القريبة على ذلك أنك لو جمعت عدداً من المدرسين وسألتهم عن رأيهـــم في عقوبـــة الطفل بدنية ، لظهر الامتعاض على وجوههم جميعاً ، ولأجابوك في نفس واحد : هذا لا يجوز إنه يخـــالف علم النفس والتربية الحديثة ، ثم لانطلق بعضهم مسهباً يصف لك الأضرار التي تنجم عن هذه العمليـــة ، ولكنك لو أتيح لك بعد ذلك أن تزور الفصول التي يدرسونها فربما وجدت بعضهم قد ترك عصاه علـــى المنضدة وآثار أصابع آخر مرتسمة على خد طفل مسكين ، فهو نظرياً ينساق مع الناس في تقديس الطفل وعبادته وتقديم كل شيء له مع عدم المساس به ، ولكنه عملياً يخالف بسلوكه معتقده ومعتقد النـــاس ، وهو شبيه بذلك الرجل الذي يعرف حرمة بعض الأشياء ولكنه مع ذلك يقترفها بغلبة النفس وســـيطرة الهوى .

ومظاهر هذه العبادة بالنسبة للمرأة أيضاً واضحة ، فإن جميع الأصوات التي ترتفع إنما تقرر حقوقاً للمرأة ولا تضع عليهـــا واجبات ، بل إن أصواتاً كثيرة تحاسب الماضي على عمومه وإطـــلاقه وهـــي في حسابها تجرم المجتمعات والأديان السابقة ، ولا يجوز في عرف الوقت الحاضر أن ينطلـــق صـــوت يـــزعم خلاف ذلك ، فعندما يقال لك إن المرأة قد كانت ظلمتها الأسرة أو الشريعة أو المجتمع ويجـــب الآن أن تنصف فقّل صح ، وإذا قيل لك إن الرجل قد استعبد المرأة وقد آن أن تتحرّر فقل صح ، وإذا قيـــل إن للمرأة كل الحقوق وليس عليها واجب فقل صح ، وإذا قيل إنها متفوقة على الرجل فقل صح ، وإذا قيل إنها أقوى منه وأذكى فقل صح ، وإذا قيل إنها من حقها التصرف دون حدود فقل صح ، وإذا قيل إنـــه

يجب أن يخصص لها في الجرائد والمجلات والإذاعات أركان للأزياء وأركان لتعليم فنون الزينة وأركان لتعليم فنون الإغراء فقل صح ، وإذا قيل إن الأطفال أطفالها – رغم أنها تتركهم للخامة أو الجيران – حين تعرض نفسها على أنظار المارة في الشوارع فقل صح ، وإذا قيل إن البيت بيتها هي يجب أن يكون على حسب ذوقها فقل صح ، وإذا قيل إن على الرجل أن ينفق على هؤلاء الأطفال الذين هم أطفالها هي وعلى هذا البيت الذي هو بيتها هي فقل صح ، وإذا قيل إن من حقها أن تشرك أمها في جميع شؤون الأسرة دون اعتراض من الزوج فقل صح ، وإذا قيل إن من حقها أن تطرد أم الزوج وأباه من بيت ابنهما دون أي اعتراض منه باعتبار الأم حماة مزعجة والأب حماً ثقيلاً فقل صح .

وهكذا كل شيء يجب أن يقدم لها في طاعة ويقال لها في تقرب ويُقبل منها في ذلة وإلا قامت القيامة .

أما مظاهر هذه العبادة بالنسبة للحاكم فلعلها تبدو في صور كثيرة هي الأخرى .

ما أن يصل الحاكم إلي كرسي الحكم حتى تنطلق الحناجر بالهتاف ، والأيدي بالتصفيق ، والأرجل بالمسيرات ، والإذاعات ببرقيات التهاني التي لو قورنت في مدى نصف قرن أو ربعه لوجدت تحمل نفس العبارات ولم يتغير منها إلا أسماء الحاكمين . وأيمان تقسم للإخلاص ، وعهود تبذل بالوفاء ، ووعود تعطى للطاعة والعمل ، ثم وصف الحاكم بالنزاهة والعدالة ومحبة الشعب والتفاني في خدمة هذه المصلحة العامة ، ثم الزعم بأنه هو وحده الذي حرر الوطن ونهض بالبلاد ، وأنقذ الاقتصاد من الانهيار ومنح العزة والكرامة للجميع وقضى على جميع الأعداء ، وربما بالغ بعضهم حتى تجاوز الحدود فوصفه بما لا يوصف به إلا رب العزة كما قال بعض المتسلقين في يوم ما في حاكم ما وهو يقدم إليه تهنئة لمناسبة: إلى مانح الخير ومعطيه .

هذه بعض المظاهر التي أشرنا إليها وهي كثيرة لا سيما عند الأمم النامية –كما يقال لها– فما يتسلق حاكم منصبة الحكم حتى يحاط بمظاهر العبادة الكاملة وعندما يسقط تتحول تلك المظاهر بسرعة غريبة إلى الحاكم الجديد قبل حتى أن يعرف من هو ولمن يعمل ، ولا شك أن الحكام في الدول النامية أو في بعضها على الأقل يتساقطون كأوراق الخريف ، فما أن يغفل أحدهم لحظة عن كرسيه حتى يجد نفسه محكوماً عليه بالخيانة والعمالة ، فإن قُبض عليه قتل وسحبت جثته في الشوارع ، وإن نجا عاش غريباً بقية عمره .

ولعل هذه الصورة تذكرنا أيضاً بالإله من الحلوى .

في سنة 1960 كنت في لبنان وأعـدّت لنا جـامعة بيروت رحلة إلى مغارة قاديـشا فمررنـا بمتحف جبران .

كنا حـوالي 150 شخصاً بين مدرسين ومديري مدارس ومعاهد ومـوجهين فنيين . وقد تنقلنـا بين أقسام المتحف وشاهدنا عديداً من الصور والمناظر التي رسمتها ريشة جبران وكان ضـمن المعلقـات لوحات ليس فيها غـير خطوط متعرجة ، كنت أقف أمـام بعضها متأملاً دون أن أفهم شيئاً . ويمـر بي الرفاق وهم يظهرون الإعجاب بتلك الخطوط المتعرجة المتداخلة وببراعة الفنان في رسمها ، كأنما كـانوا يشاركونه كل الأحاسيس التي ينفعل بها حتى كانت ريشته الدقيقة تجري بتلك الخطوط . ومرّ بي أحـد الأصدقاء وهو يطري موهبة جبران بصوت مرتفع مسموع كأنما يقصد ذلك . فملت إليه والتمست منه في خجل أن يوضح لي بعض ما تعنيه تلك الخطوط ، وكيف توصّل إلى فهم ذلك ، فالتفت إلى جانبيـه ثم همس إلي محاذراً يقول إنه والله لم يفهم شيئاً من ذلك ولكنه لا يريد أن يقول عنه الآخـرون إنـه عـديم الذوق في الفن وأن يتهم بالغباوة .

فعلمت أن هذه الحالة هي حالة الكثيرين من أولئك الزوار وغيرهم .

هذه الصورة تمثل حالة المجتمعات اليوم . ففي جميع المسائل العامة تبدو لنـا هـذه الملاحظـة واضحة – ملاحظة الانسياق الجماعي مع الفكرة الظاهرة – وإن كان الكثير ممن ينـساق وراء تلـك الفكرة إنما ينساق دون وعي أو عن غير فهم أو غير اقتناع ولكنه مع عدم الفهم أو عدم الاقتناع نـراه يجري مع التيار في اتساق ونظام .

وبهذا الانسياق الجماعي وراء فكرة أو دعوة أو عادة تتحكم العادات في المجتمعات ، لأن الأفراد يتنازلون في مجاهتها عن آرائهم الشخصية ومعتقداتهم الحقيقية ، وأحكامهم الصحيحة ، مسايرة للفكـرة السائدة التي قد تكون هي سـلوك الأغلبية ، وقد تكون فكرة بدأت في الظهور معتمدة علـى راسـب قوي من العادات أو على دعوى قبيحة من العلم أو الدين أو السياسة .

ولعل أبرز ما تتضح فيه فكرة الانسياق الجماعي ولا سيما بالنسبة إلى المثقفين وأشباه المثقفين هو موضوع الأقانيم الثلاثة . فقد انتشرت آراء عن الطفل ومعاملته وتربيته وسلوكه وما يختص به فانـساق الجميع وراء ذلك التيار وصاروا ينادون بها في حرارة وحماس حتى لا يقال عنهم إنهم جهلاء أو متأخرون . وحتى أشد الناس مخالفة لتلك الآراء بالسلوك يقف للإعلان عنها في دعوة حارة وتأكيد وتصميم كأنما هو الذي ابتكرهـا .

وانتشرت آراء في موضوع المرأة بما فيها من خـير وشر فانساق إليها الجميع دون وعي: المـرأة نصف المجتمع هي المدرسة الأولى كانت مظلومة حقها في الحرية . تعطلت مسيرة البشرية لإهمـال المرأة ، ذكاء المرأة ، قوة المرأة ، تضحية المرأة . في سلسة طويلة من العناوين الضخمة تحمل في الغالب مبـادئ

سليمة تندرج تحتها أفكار كثيرة منحرفة زائفة تلهج بها السنة لا تفرق بين الخير والشر والحق والباطل ، وينساق وراءها الرأي الجماعي خوفا من تهمة التخلف والجمود والجهل، وحتى أولئك الذين يخالفون بسلوكهم – ما يندرج تحت تلك العناوين ينساقون مع التيار ، ويهتفون معه في رتابة وتنغيم .

وموضوع الحاكم لا يخرج عن هذا النطاق ، فما يتسلق متسلق منصة الحكم حتى تبادر أجهزة الدعاية إلى الإعلان عنه وإلى إضفاء أثواب فضفاضة عليه من أكرم النعوت وأجمل الشعارات تلهج بها ألسنة كثيرة ثم يتم الانسياق الجماعي وتمضي فترة قد لا تطول فيهوي ذلك المتسلق ويتسلق غيره فتعمل أجهزة الدعاية على تجريد الأول مما كان يوصف به وإلباس الثاني حللاً ضافية من معاني الخير والعمل والكفاح ، ويتم كذلك الانسياق الجماعي في الموقفين دون أن يرتفع صوت بالاعتراض أو يندى جبين بالخجل من تبدل الموقفين .

وفي هذه النماذج الثلاثة كان الانسياق الجماعي إما عن غير وعي وتفكير وإما عن خوف من تهمة الجهل أو التخلف أو الخيانة ومعارضته الحكم .

وعلى هذا النمط بدأت تتكون عادات اجتماعية في المناسبات – سوف تكون لها خطورة – فما يظهر سلوك معين حتى يتم وراءه الانسياق الجماعي لسبب من الأسباب دون أن تظهر ردود الفعل الفردية أو الآراء الشخصية التي تقف دون انتشار ذلك بين الجميع .

والحقيقة أن فكرة الانسياق الجماعي في هذا العصر أصبحت من الخطورة في الدرجة الكبرى ، ذلك أن الفكرة الخاطئة تجد من الوسائل ما يجعلها تنتشر بسرعة وتلتف حولها الأصوات حتى تصبح سلوكا . وتقف الأصوات المعارضة مترددة في حناجر أصحابها لأنها لا تقوى أن تعلن عن نفسها لسبب من الأسباب حتى يتم الانسياق الجماعي وتصبح الفكرة الخاطئة هي المبدأ السليم الذي تبني عليه الأسس ، وترفع القواعد . وحينئذ حتى إذا ارتفعت الأصوات المضادة المنكرة ، فإنها تضيع في الفضاء دون أن يسمعها احد أو دون أن يتاح لها الارتفاع ، فتتضاءل وتنمحي ثم تزول .

وهكذا ما أن ترتفع فكرة ما في موضوع عام حتى يتم الانسياق الجماعي ، فالانسياق الجماعي في هذا العصر ظاهرة واضحة لا اختلاف فيها ولا تخلف ، تتم في يسر وسهولة وفي خطوات قليلة وذلك بأن تستعلن الفكرة فيتحمس لها عدد ويدعو إليها وينساق الأغلب ، وقد تعرض أقلية في سكوت أو خفوت إما جهلاً وإما عدم مبالاة .

وقد نتج هن هذا الانسياق الجماعي عدة ظواهر يستطيع الملاحظ أن يتبينها بوضوح ربما لخصنا بعضها فيما يلي :

1- التخلي عن الرأي الشخصي : أصبح الفرد – رغم اعتزازه برأيه الشخصي – لا يعلن عنه إذا كان مخالفاً للانسياق الجماعي ، وإذا أعلن عنه لا يندفع إلى تأييده بما ينبغي له من حماس وقوة وذلك خوفاً من أن يُرمى بالتخلف والغباء وعدم الفهم .

2- التضارب بين الرأي والقول والسلوك ، فنجد الشخص يقول بما يقول به الناس في الانسياق الجماعي ، ولكن رأيه في الحقيقة مخالف لرأيهم ولقوله معهم وسلوكه غالباً ما يخالف رأيه وقوله أيضاً والأمثلة على هذا كثيرة والباحث يستطيع أن يجد لذلك عشرات الأمثلة في سلوك الآباء والأمهات والمدرسين والطلبة وغيرهم من أفراد المجتمع .

3- الاندفاع المتحمس مع المجموع دون روية أو تفكير خوفاً من وصمة التخلف والتماساً للسبق والظهور في مظاهر القيادة .

4- امتداح الخطأ : عندما تشيع الفكرة وتسود تتولى بعض الألسنة امتداحها وتأييدها فيتواصل المدح والثناء من الجميع ، وحتى أولئك الذين يعتقدون أنها خطأ ، يسارعون إلى امتداحها والدعاية عنها علناً وربما انتقدوها مر الانتقاد في أنفسهم وفي مجالسهم الخاصة المأمونة ، فهم يمتدحون الخطأ في اعتقادهم جرياً مع الانسياق الجماعي ، ومعنى هذا أن الخطأ عندما يستعلن لا يجد من ينتقده وإنما يجد من يمتدحه ويؤيده .

5- ادعاء الذكاء والفهم : لعل أحداً لا يعترف بالقصور وعدم الفهم في هذا العصر ، وكلما أثيرت مشكلة ولا سيما في ميادين الدين والطب والاجتماع والسياسة سارع الناس إلى إبداء الرأي فيها وادعاء الفهم لها والعلم بها ، وعندما تتبلور حلول المشكلة سواء كانت حلولاً سليمة أو غير سليمة تزعم جميع الأصوات التي ارتفعت والتي لم ترتفع إلى أنها نصحت بتلك الحلول ودعت إليها قبل أن ينتبه إليها أحد .

6- التحكم باسم العلم أو باسم الدين : ظاهرة من أخطر الظواهر التي تشكل سلوك الناس في هذا العصر ،و الانسياق الجماعي واضح في هذه الظاهرة أكثر منه في الظواهر الأخرى ويكفي أن يزعم زاعم في رأي أو فكرة أنها رأي العلم أو رأي الدين حتى يتم الانسياق الجماعي وذلك لأن الأكثر في الواقع يجهلون رأي العلم أو رأي الدين في الموضوع ، فهم يستجيبون للدعوة من أول الأمر خوفاً من أن يقال عنهم إنهم جهلاء لا يعرفون بدائه العلم وحقائق الدين ثم لا يخجلون أن يردوا ذلك وأن يتحكموا باسم العلم أو الدين ، ولا شك أن من خالف بعد ذلك بعد الانسياق الجماعي اعتبر جاهلاً أو غير متدين ، ومن الآثار الناتجة عن ذلك أنه عندما تنتشر دعوى من تلك الدعاوى وتنساق وراءها الجموع يقف العالمون بها حقيقة العلم احد موقفين : منهم من يؤيدها مع علمه بأنها خطأ ويمتدح الدعاة إليها ومنهم من يقف منها موقفاً سلبياً ينتقدها في نفسه ويسكت عنه بلسانه . وكثير من المشاكل المعاصرة التي اتخذ الانسياق الجماعي فيها موقفاً بدأه طلاب الظهور بدعوى رأي الدين أو رأي العلم هي من هذا النوع .

والصورة في إطارها العام بظواهرها المختلفة – سواء ما عرضنا له في هذا الفصل وما لم نعرض – لا تخرج عن مظهر العبادة والتقديس المندفع المتحمس أولاً ، وقد يكون الرد أحياناً أعنف من الانـــدفاع الأول فينتج عنه تطرف إلى الجانب الثـــاني يمثل سلوك الأعرابي مع آلهـــة من الحـــلوى .

كَلمَـــةُ الخِـــتـــــَام

كنت أتمنى لو أن الدول الإسلامية عرضت الأسئلة الآتية على علمائها الأجـــلاء ، وطالبتهم بالإجابات المحددة عنها في شبه تشريع قانوني دون الضياع بين النظريات المتـــضاربة الـــتي تـــستوحى أو تستورد من الشرق أو الغرب ثم تجري بها تجارب عـــدد من السنين فتفـــشل وتعـــاد التجربـــة ويعـــود الفشـــل .

أما الأســـئلـــــة فهي :

1- مـــا هو المنهج الذي يسلكه الطفل وكيف ينبغي أن نعدّه له؟
2- ما هو السلوك الذي يجب أن تسير به المرأة المسلمة وكيف ينبغي أن نفرضه عليها ؟
3- ما هو السلوك الذي يطالب الرجل المسلم به وكيف ينبغي أن نحمله عليه ؟
4- ما هو السلوك الذي يجب على الحاكم المسلم وكيف ينبغي أن نلزمه به ؟

وكنت أتمنى أيضاً من أية دولة مسلمة أن تشغل نفسها بحمل الأفراد والجماعات على الـــسلوك الإسلامي وإلزامهم بـــه كما تشغل نفسها بحملهم على ما تريده من السلوك السياسي.

ولكن الأماني لا تحقق المطالب ولا ترسي قواعد للبناء .

وإلى أن يتكوّن الحاكم المسلم الذي يلتزم الإسلام في سلوكه ويلزم به الآخرين ، ويضطلع بتنفيذ أحكام الإسلام جميعاً كدين شامل لتنظيم الحياة البشرية في جميع مجالاتها ولا يقتصر في أخـــذ أحـــــكام الإسلام على نتف حسب الذوق أو حسب اقتراحات أشخاص امتلأت أذهـــانهم بتـــشريعات الغـــرب وبهرتهم أضواؤها البرّاقة .

إلى أن يتم ذلك تبقى هـــذه الأمة بمختلف دولها وأوطانها حائرة تتلقى الضربات من الخـــــارج والداخل دون أن تملك الساعد القوي الذي يدفـــع الكيد ويرد العدوان ويحقـــق العـــزّة .

مع تحيات موقع الاستقامة

http://www.istiqama.net